سمير الفيل

أرجوحة

قصص قصيرة



الكتاب : أرجوحة
قصص قصيرة

الكاتب : سمير الفيل

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٢٦٢٤
الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-291-351- 8

الغلاف :
لوحة الغلاف : صبرى محمد عبد الغنى
جرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : سيد حرزاوى
تصحيح : زكريا منتصر
كمال عبد الرسول

أرجوحة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368

arab-civilization-cinter@yahoo.co.uk

إهداء

إلى الأحزان التى تساقطت عبر السنوات
واستقرت فى قلب بارد يفيض بالألم..
إلى على الدمينى، حسن السبع، شاكر
الشيخ، عبد الرؤوف الغزال، أحمد الملا..،
عبدالرحمن السليمان، مبارك الحمود
أيضًا إلى غسان الخنيزى، أحمد بوقرى،
حسن الشيخ، أحمد سماحة، محمد
الدمينى، عبدالعزيز السماعيل، إبراهيم
الحسين، عبدالله السفر، كمال المعلم،
منيرة موصلى، عبدالعظيم الضامن، ثم
إلى الراحل عبدالعزيز مشرى الذى غادر
السرب مبكرًا..
فقد قرأوا هذه النصوص فى مخطوطاتها
الأولى، فى ظلال حر لافح يلهب الأبدان
.. والأرواح!!

سمير الفيل



« متى يأتى فى النهاية شخص ما، فيقيم هذا العالم المقلوب رأسًا على عقب؟
فى أثناء النهار يتجول المرء ورأسه تكاد تحترق. ثمة خرائب رائعة فى كل مكان، هنا فى الجبال، ويحس المرء عند رؤيته لها بأن عليه أن يصبح هو أيضًا فى مثل روعتها، فى الفراش، مع ذلك، يقتنص المرء، بدلاً من النوم، أروع الأفكار!! »

من رسالة : فرانتس كافكا
إلـــى : ميلينيا

الوجع الأول:
غربة الشتات

كتبت هذه القصص في مدن الدمام والظهران والجبيل والقطيف وسيهات والخبر والراكة في الفترة من أغسطس ١٩٩١ إلي يوليو ١٩٩٥.



أعمدة وحيدة

حين أصغيت لهسيس الريح الذى راح يصفق الأبواب ، كنت أخوض في فبراير ، ونافذة مغسولة بندى الفجر مازالت تسدل ستائرها الزرقاء . . وأنا واقف أرغب أن أقبض على حزمة ضوء . مددت يدى فإذا اللوح الزجاجي يمنعنى ، وكان السوق مغموراً بالبضائع ، وبالبائعين ، بالمشترين وقد راحوا يكدسون أصنافهم فى عربات حديدية ، تمضى على عجلات مطاطية . كانت نظرتها منكسرة . آخر مرة رأيتها وأسندت رأسها الصغير وتمتمت بكلام لم أتبينه ، ورحت أميل كظل مرتعش على جدار قديم له رائحة أيامى الماضية ،قلت لها إن هناك فسحة من العمر كى ننقب فى حديقة أشيائنا عن مسرات وبطاقات ملونة ، أكدت لها أن الضجر الذى كنا نشعر به أمر طبيعى وصحى ، وأن البكاء الذى يثقل عليها ليلاً ميزة للإنسان ، وأن الحيوانات ليس لها قدرة على البكاء ، لكنها استشاطت غضباً ، صاحت فيَّ : أنت تكذب .

قالت إنها رأت عنزة تبكى بحرقة لأن وليدها قد ضاع فى شوارع البلدة التعسة . وإن بكاءها يزلزل الجبال ويحرق الصخر .

كانت الأمطار خفيفة ، والشتاء له ملمس باهت ، كل الكلام معاد . وددت أن أخمد صوتى وأن أنسى الكلام ، غير أننى كنت ما ألبث أن أرجع إلى حكمتى القديمة وأكتم صرختى حتى لا أبدو وحشاً بدائياً . بل إننى ـ وبتعمد فظ ـ كنت أبتسم ، فى مداهنة ونفاق رخيص .

كان فراق يودى بى . . قطعت التذكرة ، حزمت حقائبها ، أحرقت رسائلها ، ولم يبق سوى أيام قلائل على رحلة الإقلاع إلى جنتها الموعودة أمريكا .

* *

حين رحلت من قبل كانت إلى واحة فى أقصى الغرب، واحة ذهب إليها الإسكندر ماشيًا باتجاه معبد آمون، ولم يعد.. لقد قتله الإجهاد والعطش ودعوات الكهنة التى راحت تعصف ببطولته الهائلة، وانخطف فانطفأ نجمه مرة واحدة. أما هى فقد عادت بلوحات جُنت بها، رصتها فى الدور الأرضى من منزل العائلة، وراحت تغسل شعرها بزيت الزيتون وتغنى (باهى.. باهى.. لا تقولى إلاهى) تزم شفتيها. وتغزل ثوبًا من صوف الغنم، وتهجر مقعدها الوثير، وتجلس على البساط المشغول. رحت أسخر منها.. وكنت كالعادة أرتكب أخطائى البسيطة القاتلة. رحت أقلب اسكيتشات بقلم الفحم. أما توقيعها فقد حدقت فيه مراراً، وجدت فيه بعض الاختلاف.

سألتها: ما الذى جرى لك؟

قالت وهى تتنهد: النهار بطىء، والليل سجادة من نجوم.

ضحكت: لم لا تتحولين إلى شاعرة؟

ردت فى هجوم مباغت: ولم لا تتحول إلى إنسان؟!

كان مساء خائبًا. ورأيت الأرق هلالات زرقاء تحيط بالجفون. سألتها أن ترجع إلى بيتنا.

قالت وهى تقطع بالسكين إحدى نعالها. كل شىء انتهى. ضحكت ولأول مرة أدرك أن زوجتى مجنونة، فقط علىّ أن أدخلها المصحة، بكت بدون مقدمات، قالت إنها تشعر بأدعية الكهنة تنصب جحيمًا على رأسها وإن إشعاعات (آمون) تحاصرها.

كان الليل ينبسط وذكرى أيام الخطوبة التى انتهت بزواج فاشل تحوم على رأسى، بسطت أوراقى وأمسكت قلمى، وظلت مساحة البياض ترهقنى، وكان قلبى باردًا وميتًا كما لم يكن من قبل.

جاهدت نفسى حتى لا أصارحها أن السفر إلى الواحة أفسدها قبل أن

أكبح مشاعرى، قالت لى بهدوء مميت : أفسدتك المدنية !

* *

لم يكن لى أن أعايرها بأبيها، ذلك الرجل المنفلت العيار، كنت أعرف أنه طلّق أمها الصعيدية، وسافر إلى أمريكا وتزوج من سيدة أعمال تقطن شيكاغو . رآها فى سقارة أمام الهرم المدرج، زلت قدمها بفعل الأحجار المتناثرة، فأخذها إلى طبيب الموقع، وحين انتهى الأخير من علاجها كان الوفد السياحى قد سافر إلى الإسكندرية، ففضلت أن تقيم بقية الرحلة فى سقارة. لم تحك لى بقية الحكاية، لكننى أعرف أن المرأة الأمريكية سرقت أباها ورحلت. لم يكن فقيراً، لكنها أغرته بحياة شيقة، وأموال، وعقود من الزمرد خطفت بصره، فرمى اليمين ثلاثًا على أمها الكركوبة وسافر بلا عودة.

كان جرحها الذى يدمى مع الزمن. رأيت أمها.. طيبة، وصبورة، تتلفع بملاءة سوداء، لا يبين منها غير وجهها. كانت مختلفة عن تلك التى اخترتها، تمل بسرعة من كل شىء تألفه. هناك سر بعيد صعب تبحث عنه، تطارده بالرسم والسفر والبكاء. حين أخبرتها برغبتى فى الإنجاب لم ترد، بل راحت تنظر إلىّ مليًا.. ثم قهقهت ولم تتمالك نفسها. كان جسدها يرتج وهى تشير بيدها إلى أعلى : يكفى مجنونة واحدة فى العائلة.

ودون أن تسمح لى بالحديث، راحت تحدثنى عن النقوش الغائرة التى مررت أصابعها عليها فى معبد آمون، قالت إن الألوان رغم مرور آلاف السنين ظلت زاهية. ابتسمت دون مناسبة. همست والرعدة تشملها : ستذهب معى المرة القادمة.. أليس كذلك؟

لم يكن لى أن أجيب، كنت أدرك أنها سريعة الانفعال وأن الصمت هو الشىء الوحيد المسموح به لحظتئذ.

لم أكن ضعيفًا ولا فاقداً نخوة الرجولة. كنت أريد أن أتمالك حواسى، وأنا أواجه أزمتها التى تلتمع كالبرق ثم تنسحب فى هدوء.

* *

فتحت الباب وتأملتنى وأنا أكتب، كنت أذوب فى اللغة، وتتلبسنى الحروف. أمحو كل ما تعلمته فى الدنيا، وأغلق ذاكرتى كى أتمكن من التحليق، أريد أن أتحرر من جسدى، وأحزانى، وأن أصخب فى عباراتى، وأشعل العتمة بأسهم من ضوء، تنهمر لتضىء الحياة.

كان الضوء شاحبًا، أحسست بها خلفى. كان حفيف ثوبها يخدش هدوء المكان، لم تكن تضع عطراً، لكن رائحة الحناء الذى نقرشت به كفيها وكعبيها. تخيلته أكثر احمراراً وصدمنى أن تقتحمنى فى عزلتى... توقفت.

سألت وهى تتنهد: ما بك؟

لم أرد، خرجت وصفقت الباب، كان إلى جوارى كوب الشاى، وزهرتان من الورد الجورى، وبنسة شعر. كما لو أن الكتابة هجرتنى، توقف القلم. وكان علىّ أن أمزق الأوراق مزقًا صغيرة.

* *

هى التى قادتنى إلى هذا المكان. كانت الصحراء ممتدة بلا انتهاء والرمال تصنع تموجاتها، والصمت أشمه ويأسرنى ببذخه الهائل، لم تكن ثمة أعمدة كما هيئ لها ولا تيجان منقوشة بزهرة اللوتس، فقط خلاء موحش. لكننى واصلت المسير خلفها. يستهوينى أحيانًا جنونها، لكن يبدو أن هذه المرة هى الأخيرة فلو نفد الماء لكان هلاكنا المحقق. أنصت إلى أصوات غريبة.

تجمدت وصحت: أتسمعين؟ عواء ذئب.

مضت دون أن تنظر خلفها: لا تخش شيئًا.. الضوء هناك، أتراه؟

لم أكن أرى شيئًا . رحت أنتزع أقدامي بصعوبة وقد نالني تعب شديد، توقفت فجأة . كان عقرب رمادى صغير يتأهب للانقضاض على ساقها، تحاشت المرور من فوقه، ابتهجت : ألم أقل لك لقد اقتربنا ؟ !

كانت الأعمدة فعلاً هناك وحيدة مهجورة والهواء يندفع بينها، فنسمع أصواتًا مجوفة، سلطت كشافى وأنا أتقدم بمحاذاتها، لا يوجد ما يكسر الصمت غير وقع أقدامنا، ولغرابة الأمر كانت هناك نخلة وحيدة ثمرها قريب دان قطفه، قالت لى بعد تردد : لا تأكل .

وكان تمرد الدنيا سكنني، مددت يدى ورحت أقطف، أملأ فمي بالبلح الحلو اللذيذ، وأقذف النوى، وكانت كل نواة تهبط على الرمل تحدث صوتًا كارتطام عملة معدنية على رصيف مسفلت .. وحتى حين توقفت عن المضغ ولفظ النوى، ظل صوت الارتطام يتصاعد ويتصاعد حتى صم الآذان .

تمددت على رأس تمثال ضخم ورحت أتمنى :

(باهى .. باهى .. لا تقل إلاهى) .

وفجأة ارتطمت يدى بشىء صلب فطار الكشاف من يدى .. وأحسست بصوت أجسام غريبة تسعى . كانت عقارب .. تندفع رغم صراخى الهائل ! !

* *

كنت فى وداعها .. قالت إنها آسفة لتلك المتاعب التى سببتها لى وإنها ستلحق بأبيها بشيكاغو، وسوف ترسل لى بالتأكيد بعد أربعين يومًا . ولما هززت رأسى رافضًا الفكرة من أساسها، أصلحت من هندامها، وزججت الحاجبين، ثم مررت إصبع (الروج) على الشفتين، قالت إن القارب يتهادى الآن فى طريقه إلى الشاطئ، وإن بها رغبة فى البكاء .. أوصتنى أن أنسى كل ما ذكرته لى عن واحة (سيوة) . أكدت

لى أن الولد الذى سننجبه فى المستقبل حين آتى إلى أمريكا سيكون أبيض البشرة، وله عينان زرقاوان، وشعر أشقر.

لم أرها وهى تصعد سلم الطائرة، فلم يكن لدىّ أدنى رغبة فى أن تغير رأيها. لقد أغلقت الأبواب تماماً وتركتنى هنا.

بينما أفتش عن ثيابى وأضعها فى حقائبى كى أعود إلى غرفة العزوبية، انفتح الباب، قالت لى العجوز ويدها ترتجف: لا تذهب يابنى.. إن زوجك بالداخل!

* نشرت بـ(اليوم) فى ٣/٢/١٩٩٥

تقاطع طرق

لأنه وجد نفسه فى تقاطع الطرق، وحيداً، مفلساً، فاقداً هويته، فقد خمن أن المنعطف الأيسر هو الذى سيقوده إلى مبتغاه.

حشر نفسه فى النفق المؤدى إلى النهر. كانت الأسهم سوداء وتطعن الفراغ.. أمكنه أن يرى الوجوه من حوله مفعمة بالحيرة، وكان يحمل قلباً بريئاً.. إنها تهزه، تسأله أن يتكلم.

طلعت الحروف متكسرة، فاضت على الشفتين آهة. ود أن يعانق الرجال الذين يحركون المقاعد ذات العجلات بأيديهم، اقترب من أحدهم، قبل أن ينحنى ليحدثه، أدار العجلة بأصابعه المبتورة. عاد وحيداً، مفلساً.

البحر الذى حمل المراكب والألغام، والنفايات كان أقرب إليه من البشر.

أيظن أن حلقة الدخان هى السبب فى حزنه الذى تكشف له عن خيبة جديدة؟

أتاه صوتها حزيناً، وكانت السماء مبرقشة بنجوم لا ضوء فيها. قالت: ارجع!

استعاد حقول الحنطة. إن السنابل ماتزال خضراء. ربما فى هذه اللحظة بالذات كان عليه أن يقرر، فخلع خاتمه ونزع ساعته بطريقة لم تكن تخطر له على بال، حطم الزجاج المستدير، ورأى العقارب تتحرك نفس حركتها الرتيبة: تك. تك. تك. تك.

قال له الطبيب وهو يتأمله بعد أن انتهى من كشفه:

– كل أجهزتك معطوبة.

كل أجهزتك.

وقد أرسل برقيته الأخيرة، قال إنه سيعود في موسم الخوخ، وكان تقاطع الطرق فيه ضجة، وزحام، أوراق أشجار ذابلة، تحمل اصفرارًا مرعبًا.

انتهى من ركضه. هو الآن يجلس في مكتبه، يرتشف قهوته بمذاقها التركي، ويضغط على جبهته.

الجبهة كانت مشتعلة بقذائف من كل نوع: الهاون، والبازوكا، والهاوتزر، وطلقات كاشفة وأخرى شديدة الانفجار.

«السويس» تحتضن بيوتها المتساقطة، تحاول أن ترمم الطوب وتقيم جدارها في وجه الزحف المرتقب.

من خلف «شكاير» الرمل قبع وانتظر، فوجدهم من خلفه قد احتلوا كل الطرقات.

أما النفق فقد انتهى به إلى نهر بلا ماء، نهر من الأموال التي راح يعدها: «واحد.. اثنان.. مائة.. ألف.. مائة ألف، ربع مليون». توقف عن العد، وكانت أنفاسها اللاهثة تلفح وجهه، اقتربت منه أكثر، هزته، اعتقد أنها ضبطته ميتًا.

لكن قلبه كان يدق مثل الساعة التي حطم زجاجها دقات رتيبة. بلا توقف: تم. تم. تم. تم. عند حانوت بيع الفوانيس، انتقى ثلاثة بشبابيك مشغولة بالقصدير، لها مقرنصات بديعة، حملها في صدره، وسار إلى البيت، أي الطرق أقرب؟ الوقت متأخر، وتوجد أصوات عربات تمرق من بعيد، ونباح كلاب، لم يكن زمن خوف بل زمن خواء.

وجد نفسه في الميدان الذي يعرفه تمامًا. القاعدة الحجرية خالية من التمثال الذي يشير إصبعه إلى البحر.

ليست مهمته أن يعيد التمثال، ولا أن يصلح ساعته، انتظمت خطواته، وفطن إلى أن هناك من يتبعه، جرب أن يتوقف، أرهف السمع، استمرت الخطوات ورنت فى أذنه جملة مكتومة : اتركوه يذهب !

مد يده فى جيب بنطلونه، قبض على أوراقه القديمة، عشرات الأختام السوداء والإمضاءات، وأرقام هواتف، ومفاتيح من صلب لا يصدأ، وعناوين أصدقاء، وأدوية مسكنة. مد يده إلى الجدار القريب، فوجئ بالشكاير، والرمل يسرسب. كانت هناك فوهات مصوبة نحو الشرق ولكن البنادق ذاتها لم يتأكد من وجودها.

ـ تعال !

كان الصوت أقرب إلى الأمر، عليه أن يعبر الكوبرى الحديدى القديم، ومن الأفضل أن يمسك الكشاف ويصوبه على مقربة من قدميه.

هل هناك نية فى أن يترك الفوانيس، وينشغل بالدفاع عن نفسه ضد أى هجوم يتعرض له.

النقود المعدنية كانت تصلصل فى جيبه، صفَّر بفمه ليقتل السأم.

لو كان السأم رجلاً لقتلته !

ومدرس اللغة العربية يهز عصاه، ويؤكد أن «كان» فعل ناقص يرفع المبتدأ وينصب الخبر.

هل يمكنه أن يأتى بـ«كان» فى هذا الظلام الدامس الذى يحاوطه من كل جانب، ولو وضع الفعل الناسخ فى مقدمة «النفق» فهل سيخرج إلى نهر مليء بالمياه والأسماك وقوارب الصيادين؟ نهر مياهه تحمل زرقة المكان، وتجاعيد الهرب إلى مكان بعيد بلا فوانيس ملونة، ولا زقزقة عصافير طليقة؟!

ـ تعال :

كان الصوت هذه المرة آمرًا ناهيًا.

سقطت الساعة، تناولها من على الأرض، حاول أن يستقيم، شعر بدوار هائل، وألم عنيف يعصف بقلبه.

واكتشف أن التمثال الذى كان يشير إلى البحر طيلة السنوات الماضية «كان» بلا أصابع!

لكن القاعدة خالية، وكان فعل ناسخ، وهو يمضى إلى البيت. والفوهات تطلق رصاصاتها نحو قلبه هو بالتحديد.

ـ تعال.

وكان أن سقط، وجرت أقدام وأسبلت جفنين مسهدين على عينين مليئتين بالحزن والأرق!

* نشرت بـ (اليوم) فى ١/٤/١٩٩٥

نوارس

عذبني البون الشاسع بين الحلم الذى أراه فى منامى وبين الحلم الذى يراودنى فى يقظتى. إذ كنت دائمًا ما أقطع الطريق من منزلى فى ميدان سوق الحسبة وحتى مدرسة الإمام محمد عبده وأنا أشكل أحلامى، طرية، مرنة، قبل أن تلفحها النار، وكانت الحقيبة السوداء الحائلة مثقلة بالكتب مما يجعل كتفى الشمال يميل، وكان أصحابى يعرفوننى من بعيد بشيئين: كتفى المائل وحقيبتى التى لا تفارق كتفى، أما شعرى المنكوش والذى كنت أتعمد عدم تسريحه نكاية فى أصحابى الذين يدهنون شعورهم بالفازلين، فقد كان ناعمًا لامعًا رغمًا عنى. دون أن أنبس بكلمة واحدة كنت أسير. وكل الحوانيت مغلقة، فشهر رمضان يحب السهر والونس، والمقاهى التى كانت تشرب ندى الصباح مغلقة الأبواب، وقطعان الماعز تسير بلا هدف وتنبش فى أكوام الزبالة بلا حماس. كان حلمى أن أطير. نغمة خفيفة تتسلل إلى روحى، فأروح أعدو أعدو، وأفرد ذراعى، ولما تعيقنى الحقيبة أقذف بها، وأخى من خلفى يتوعدنى ويهددنى بإفشاء السر.

كان هادئًا فقط يسير معى كل رمضان يعد الفوانيس الملونة. ويسجل فى ورقة معه. وحين يرى الفانوس الأخضر الشفاف بكل شراشيبه يصنع موجًا ورقيًا مع هبوب الريح كان يجن من الفرح، وقتها كان الحلم يحملنى. وأفرح لأن الحقيبة لا تعيقنى، فأطير.. أتحرك على إيقاع جميل، ولا أخاف شيئًا وأشعر أن جسمى شفاف، والموسيقى ترفعنى أما الضوء فيخترقنى. لم تكن توهمات إذ إننى نظرت خلفى

ـ لحظة مباغتة ـ على الجدار ففوجئت بجسدى وكان بلون الفضة، كنت أحمل نفس ملامح أبى الذى مات منذ اثنى عشر عامًا فى صيف أغسطس ١٩٥٢ . قال لى أخى : لنعد الآن . لكننى شعرت أننى تحررت من كل قيودى فذهبت إليهم فى بيوتهم، ومن بير السلم تردد صدى صوتى . تقاطروا من خلفى . . كنت أسبقهم بخطوات، أندفع فى الخلاء وخلفنا أولاد لا نعرفهم . كانوا يتحركون بخفة مثلنا . أعرف أن أمى الآن مستغرقة فى البكاء على أولادها الذين لا يسمعون الكلام، لقد دفعت بأخى إلى ورشة الموبيليا، فلما حمّله صاحبها ألواح الخشب الثقيلة، نخ، وتألم ولم يعد ثانية . أما أنا فقد ضربت ابن المعلم المدلل، وأخذت منه الدراجة، والولد يبكى والمعلم يجرى ورائى وأنا أندفع بكل قوتى أضغط على الفرامل وأراوغ، ولما أمسكنى قرص أذنى بكل غل حتى كادت أن تطلع فى يده . كنت على وشك البكاء، ولكننى تمالكت نفسى ولما ابتعدت رحت أضحك وأضحك وكلما رأيته أخرجت له لسانى : هم م م م .

كانت الساحة خالية ومآذن المساجد تضىء عقودًا من النور الوهاج . قلت لهم : فى رمضان تُصفد العفاريت، كنت أحب هذا الشهر . نزحف تحت الدولاب ونقطع لفة «قمر الدين» نحشو جيوبنا ونلعب السبع طوبات ونقف فى حلقة : أرنى لسانك !

يا فاطر رمضان . . يا خاسر دينك، كلبتنا السودا . . قطعت مصارينك . لم أر سوى مصارين ابن الحاوى الذى يصنع دائرة ويجمع القروش فى طاقيته، قبل أن يطعن الولد المسكين ويخرج أحشاءه والدم يتساقط بلونه الأحمر القانى .

لم أكمل المشاهدة، عدت لأمى أصرخ والبكاء يخنقنى، لكن أخى عاد بعد ربع ساعة وأقسم لنا جميعًا أن ابن الحاوى قام ثانية وأن

المصارين عادت لمكانها. من يومها لم أصدق الحواة واغتظت من أخى الذى كان يعايرنى ببكائى.

ولكننى كنت أسبقه ونحن نصنع خيولنا قرب المغرب ونتأهب لرؤية الشاويش يطلق مدفع الإفطار. كانت الفوهة متجهة لمقام «الشيخ الصياد»، وحين نلمح يده الغليظة تحك رأس الطلقة، ونشاهد النار فى الأفق قبل أن يزلزلنا الدوى ـ نجرى جميعًا بأقصى سرعة. كانت الشوارع وقتها تبدو خالية والنخل يهتز. نعود كسرب حمام إلى العش قبل أن يدهمنا ظلام الليل.

كان الأستاذ «على» يحكى لنا حكاياته الجميلة عن جزر من الياقوت الأحمر، وسندباد يخلص ست الحسن من قبضة الأشرار. وقتها كنت أرتعش ويكاد قلبى يسقط فى قدمى وأنا أقود سفينتى عبر الأمواج المتلاطمة، وعند مصب النهر فى نقطة التقاء الماء العذب الأحمر بالماء المالح الأزرق بكيت كثيراً. فقد رق قلبى للنوارس التى كانت تروح وتجىء ولا تجد شطًا تأمن له. لا شاطئ مطلقًا!!

قلت لأمى: لماذا مات؟

فانهمكت فى رتق الثوب، ونزلنا إلى عم «عبده طه» وجلسنا على البلاط أمام محل الحلاقة نستمع إلى ألف ليلة وليلة، كلنا يحبس الأنفاس وهى تبدأ: «بلغنى أيها الملك السعيد، ذو الرأى الرشيد» والراديو الخشبى قابع فى المدخل تمامًا والرجل يقدم لنا التمر وينهر من يتكلم. كان يتفرس فى وجوهنا ويصوب نظراته المتأسية لحلمى الأخرس الذى كان أذكانا ولكنه يعمل فى محل «السبرتو» و«الخل» ويجمع ويطرح دون ورقة وقلم، دون أب مثلى ودون أم مثل جارتنا ثريا التى ماتت أمها وهى تلدها.

حين تنتهى الحلقة تنقشع سحابتنا وهو يهز رأسه الأشيب فى رضا

ويقول لجاره الجزمجى الحسودى: رمضان كريم، دعهم يستمعون.. فيتململ الجزمجى وهو يفتح دكانه وينفخ غيظًا وهو لا يرى أحداً منا يكلمه.

قلت للأولاد إن ألف ليلة وليلة سميت كذلك، لأن الليلة التى تزيد عن الألف هى ملكنا، ما رأيكم أن نمثلها؟ ارتبك أخى وشحب وجهه ثم رأيته ينصرف نحو البيت.

بدأنا توزيع الأدوار، وضعنا خوذًا على الرءوس، وامتشقنا أسلحتنا، قسمنا أنفسنا فرقتين، اتفق كل فريق على كلمة السر، وكان علينا أن ننتهز فرصة غياب القمر بسبب كثافة السحب لنحبك خطتنا..

أتينا بالصفائح الفارغة وفى أول عطفة مجاورة لدكان الجزمجى رحنا ندق دقات متتالية، دقات مزعجة. خرج مذعوراً، حاول إمساك ولد واحد. لم يستطع. هددنا بأن من يمسكه سيحبسه ليلتين. من الجهة الأخرى بدأت دقات أخرى بصورة أعنف. رأيناه يدور حول نفسه يكاد يشتعل غيظًا. سكتنا، ولما عاد إلى «بنكه» عادت الطرقات. رأينا عم عبده طه يضحك فى سره. انهالت علينا اللعنات من الجزمجى.

فى توقيت واحد رحنا نقترب أكثر وندق. كنا نرى الفوانيس بكل الألوان، لقد كانت تهتز كأنها فرحة بشغبنا. قال عم عبده طه: كفى يا أولاد.

فى لحظة واحدة كففنا عن الطرق وانطلقنا إلى الساحة لنواصل لعبنا وكنت أعرف ـ دون أن يخامرنى أى شك فى النجاة ـ أننى سأتلقى ضربات موجعة، ولم أكن أشعر بأى خوف بل إننى أحببت أمى ليلتها كما لم أحبها من قبل!

* نشرت بـ (اليوم) فى ١٩٩٥/١/٢٨

أرجـــوحة

بين شجرتين علق شبكة «الفولي» وربط الأطراف جيداً بالجذعين. تمدد وفتح كتاباً، وراح يهتز كما رأى البطل يفعل في فيلم الأمس. جسده الذي راح يتأرجح انتشى بالذبذبات التي أعادته إلى طفولته.

كان يمشي حافي القدمين، وكانت أمه مشغولة دائماً بزوجها الجديد بعد أن مات الأب في حادثة سيارة فنطاس تحمل البنزين. قبل أن يبرد دمه تجملت، وذهبت إلى المحكمة لترفع قضية على السائق المتهور الجبان، تأجلت الجلسة واستعانت بأكبر محام بالبلدة. راودها عن نفسها فاعتصمت بكبريائها وسطوة عائلتها. قبل أن يصدر الحكم بتعويض كبير كانت زوجة للسائق الذي ترك ضحيته ينزف على قارعة الطريق.

كان زوج الأم يدخل البيت ليلاً بعد أن يملأ صدره بالدخان الأزرق، أما هو الصبي المنفلت العيار، فينكمش في ذاته، ويجذب ملاءة السرير ويغطي وجهه. لكأنه يدخل بسيارته الفنطاس حجرة نومه بالذات. لتدوسه العجلات وتبططه.

وقالت أمه: لا تصرخ يا ولد ستفضحنا. كان من شدة خوفه يتبول ليلاً دون أن يدري، ولم تذهب به أمه إلى الطبيب لأنها انشغلت بحملها الجديد، وشراء الأقمطة والأربطة، وملابس الجنين الذي كان يرفسها بقدمه فتضحك في هناءة. تأرجح أكثر، وكان لأوراق الأشجار حفيف، أما السحالي فقد راحت تمرح في العشب بجلدها الذي بدا كبقع سوداء في مساحة الأخضر الداكن. قالت له قبل أن تهجره:

أتصرخ فى الليل ؟! وقد أعطته - على دائر مليم - مهره وهداياه وزادت على ذلك سوارها الذهبى الذى يأخذ شكل رأس أفعى بجسد أسطوانى مبروم. ولم تبك. ولم يكن يعرف غير الصرخات فصرخ تاركًا تلك التفاهات.

تأرجح أكثر. كتب يشكو الأيام والبشر، وزوج الأم. كثيراً ما فتح باب الشقة وخرج للخلاء، حيث الخرائب تجمع البوم والخفافيش والقطط الهائمة على وجهها. يرجع لينام على درجات السلم حتى مطلع الصباح وكان يحلم أن فنطاس البنزين قد اشتعل، أمسكت به النار وحرقت كل الوجوه التى كرهها، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، ما مست النار إلا قلبه. لقد قرأ كتبًا وبحث فى مراجع، وسرق أقلام أصحابه وكتب على الجدران عبارات تفضح صمتهم وتكشف سترهم، كانوا لا يهتمون بكل ذلك، يخرجون له ألسنتهم فتبدو مشقوقة، وأصواتهم التى تلعنه تفح فحيحًا مميتًا.

رغم ذلك كان ينجح كل عام بتفوق. كان يتجه إلى الجامعة ومعه كل مرارة الأيام الرمادية، والحجرة المقبضة التى اعتصرت قلبه. حين سقط الوطن محتلاً بكى لليلة واحدة وكانت أمه ترتق جورب القاتل فى طمأنينة. صرخ فى وجهها: كلكم قتلة. ليلة واحدة بكى فيها حتى طلوع الفجر ثم ابتاع بلطة أخفاها بخفة تحت وسادته «من يدريك لعلهم يجيئون.. القتلة!».. سار فى المظاهرات التى ترفض الهزيمة وكان يشعر أكثر من أى فرد آخر بمعنى الكلمة، ويتحسس الشرخ فى روحة يتسع رويداً رويداً. عاد إلى حجرته وقد شعر أن شاربه يخفى مأساته، حلقه، وتخبط فى الليل بأجساد المهجرين من مدن القناة ملفوفة فى بطاطين صوفية صرفتها لهم وزارة الشئون.. تفتح قلبه على حب تلك الفتاة التى قدمت له منديل رأسها ليعصب جرحه فى

مظاهرات الكعكة الحجرية. برد يناير تراجع وهو يحكى لها قصة أليمة عن رجل دهمته سيارة عمياء. تزوجها، وكعادته فى الليل صرخ. أول مرة هدأته، أشار إلى درج الحبوب، وراح يبلع أقراصًا، وذعرها لا يفارقها. قال لها: إن الحرب لم تنته، وإن الثأر قائم. وفى الليل صرخ، وصرخت. قالت له: أحبك، لكن الطلاق أرحم وإن...

قاطعها: لن أطلق.

وكان منديل الكعكة الحجرية مطويًا بعناية بين أوراقه القديمة، وحين تأمله رآه - وجسده يرتجف دهشة - ينزف.

وجاء العم والخال والأخ الأكبر وابتسموا فى وجهه، وحدثوه عن القسمة والنصيب، ولما أحضر لهم منديله الذى ينزف ظنوه يسخر منهم. أوسعوه ضربًا وركلاً. وكتب الورقة ولم يرسلها لأنهم أخذوها معهم. قالت لهم وهى تنصرف بأسى: لماذا فعلتم به كل هذا؟!.

ربتت على رأسه، قالت له وقلبها يخفق إنها تريد العودة للميدان وإن خراطيم المياه التى بللت ثيابهم فى ذلك المساء البعيد لا يمكن أن تنسى. فقط صراخه أصاب قلبها بالوجع.

قال له سائق سيارة البنزين: كنت أعرف أنك ستفشل، اذهب فى مصيبة!

ولم يكن أمامه إلا أن يعلق جسده هكذا فى الهواء، كما رأى فيلم الأمس. كان المطرب يرتدى الجلد الأسود ويغنى بصوت رقيق حاول أن يقلده فاكتشف أن صوته مشروخ، تحسس حنجرته فكانت تخشخش مثل السحالى تحت الأوراق الجافة تتحرك.

اكتفى بأرجحة الجسد، وكان زوج الأم يدخل بسيارته الفنطاس فيصدمه ثم يعود فيصدمه. مد يده لينتزع البلطة فلم يجدها. وجد السيارة تعاود الصدمة. وكان سعيداً بتلك الميتة!

* نشرت بـ (اليوم) فى ١٢/٥/١٩٩٢



سنة حلوة يا جميل

رأيتنى معها فى نفس المكان الذى تعودنا أن نقضى فيه ذلك اليوم. فقد انحدرنا نحو الزورق الذى تأرجح بنا فاقداً اتزانه، ضحكنا نفس الضحكة الرائقة التى كانت لنا فى ديسمبر البعيد. وكانت النوارس تحط على صفحة الماء، وثمة سحب بيضاء خفيفة، تخفى قمر الظهيرة حينًا، فيراوغها باستدارته الباهتة حينًا آخر.

وجدتنى أسند رأسى على حافة الزورق، كما تعودت، وأعبر مساحة الخضرة، وحين أهم بقطف ثمار التوت تشتبك سترتى بأطراف السلك الشائك، يوخزنى السيخ الرفيع المدبب فى مكان ما أعلى السرة. نقطة دم ضئيلة لا يؤبه لها، تراوغ النسيج القطنى.

أرى «ست» بتقطيبته التى ترعبنى، يحاصرنى بظلامه، ويطلق جنوده بحرابهم المسنونة، لكنه لا ينال منى، إذ إننى أراوغ، أمرق من شق صغير فى الجدار، وأهبط إلى «حقول الثوم». أخرج معها وأرقب شمس ديسمبر وهى تغرب، نمر فى عودتنا بأشجار الكافور فنقرأ أسماءنا المحفورة على الجذع الضخم فى سعادة بالغة. نسمع شقشقة رقيقة فى عشش الطيور الصغيرة التى نخمن أنها السنونو.

تمد يدها وتقطف أوراق التمرحنة، تضع الزهور الناعمة فى (الديكولتيه)، وهى اللحظة التى أقرر فيها أن أفاتحها فى الأمر، لكنها تمد يدها وتغلق فمى، تهز رأسها أنه ليس وقت كلام، وحين نقفز الدرجات الحجرية صاعدين إلى الرصيف نرى مثلنا كثيرين. نافورة الميدان، وسمكة البلطى تمسخ دائرة الأسفلت. هنا كوبرى قطار السكة

الحديد. وأشجار النخيل منقوعة فى سحب الغبار وشحوب الوجه لحظة الوداع. الرذاذ يغسل الحروف وأسوار البوص تحجب نبات التين الشوكى. أمد أصابعى وأقلب الياقوتة الحمراء، وأنظر للبيوت التى تطل شبابيكها على النهر، فهل حان وقت الرحيل؟

الحوذى يسعل، والحصان الهزيل يدق بحوافره الأسفلت ويمضى. سحابة عفار تحتوينا صامتة مثل زهرة بنفسج من بلاستيك أخرس، هناك سور يفصل بيننا وعساكر الأمن المركزى يزومون. أنام بملابسى، تأتى أمى وتهزنى، تخبرنى أن السيارة أسفل البلكونة وأنها رأت العسكر فلا أتركها تكمل فيما تذهب وتأتى بالحقيبة.

قلت لها والرسائل تتكوم على حافة سريرى إن الفراغ قتلنى وأننى ذهبت إلى الزمن الآخر، وقد امتلأت سلتى بالحنطة وضفادع مذعورة، وإن الشعاع الذى سقط على المرآة قد زغلل عينى فلم أبصر الأشياء إلا منقسمة. كان صدرها يعلو ويهبط. تقرب الصدفة من فمها الدقيق، وتوشوشها. تزيغ نظراتى وأنا أحرك مؤشر الراديو وأندس بين فقرات نشرات الأخبار.

قام من النوم، سأل عنى، قال إنه يريد سيارة تدور بالزمبلك وصفارة ودراجة بثلاثة إطارات، كان يبكى وصدى البكاء يتردد عبر القبو، رأيت دخانًا كثيفًا يحط على الساحة وكان النهر يفيض وأسماك البلطى تلهو وتتخبط تحت أضواء النيون. كان الحلم يطاردنى وساعة الميدان تدق، و«أبو المعاطى» يكسو المكان بنفس الشموع المختنقة. قال الولد بصوته الواهن: تعال. رفعت نظرى إلى الأفق فأبصرت هدهداً نحيلاً، حط على سعف النخلة. هز ذيله وراح ينقر نافذة الزجاج. خطف بصرى شكل الياقوتة، لونها وبريقها الذى عشت أخشاه.

جاء رجل يخفى كهولته خلف صوته الأجش. حرك يده فأتت حية

تسعى، ولسانها المشقوق يتحرك. التهمت فراشات عديدة، ودخلت الشق ثانية. قال وقد انبهمت عبارته كلامًا عن الأمواج التى ستأتى بارتفاع الجبال، وعن الرياح التى ستخلع الأشجار، وكنت أخشى الموت منذ ذهب أبى وسكن القبر. كان الخوف له لون الزرقة. تسللت إلى الحارة، كان الأولاد يلعبون، والجمل بارك على قوائمه، وعبارة: ياداخل هذا المكان.. صلِّ على النبى العدنان مكتوبة بخط عريض، وهودج يتحرك، وزغاريد.

أرنو للفجر أن يأتى، كان الشعر الأبيض يتسلل إلى خصلة هفهافة. سألتنى وهى تخفى ألمها: هل كانت الأعشاش بعيدة، وآمنة؟ نسيت أن أخبرها أن البيض قد التهمته الحية وأن الأسماك قد اختنقت. انفتح باب الكلام وضاع النور، فاخترق الظلام المكان.

هزتنى فقمت مفزوعًا، وحين كانت رشاشات «العوزى» تحاصرنى من كل ناحية كنت أصعق لأنها ملامح أعرفها، رأيتها لكن لا أدرى أين كان ذلك.

اصطنعت الخوف، أومأت برأسى أن أشرب، قدموا لى كوبًا من الفضة. بحرص رحت أتجرع الماء، لم يكن للماء طعم ولا لون، كانت له رائحة لا تطاق. قدم لى كبيرهم طبقًا به عسل وتمر ولبن رائب. أردت أن أعتذر. لكزنى بقوة فأكلت بلا شهية.

والآن ماذا أفعل؟ لقد جاء يوم مولدى لابد أن أحتفل بالمناسبة على طريقتى؟

كانت كل الأشياء معدة: ستائر مخملية، طنافس مدلاة، وملاءة السرير كانت أشد بياضًا من زهور الفل. أجمل الأشعار فى القلب لم تزل. اتكأت على مرفقى وأردت أن أطفئ الشموع، لكن البنادق حاصرتنى من جديد.

لم أعرف كيف جاءت حبيبتي وصنعت جدائل من ألياف الكتان ثم طلبت مني أن أشارك في اللعبة. اعترضوا، لكن الضحكات بددت حذرهم. غمرتهم نوبة من الحماس، راحوا يدبدبون بأقدامهم. دسست حبات المنوم في الأكواب. هل يكتشفون الخديعة؟

راحوا يعبون الشراب اللذيذ وكانت أصوات أقدام تقترب. أعرف إيقاعها على امتداد الجبهة في صيف ١٩٦٩. نفس الأفرولات الكاكية، حين تحك الحافات درجات السلم، وكان الولد صغيراً مازال يبكي في صورته على الحائط، والشمعدان يزوغ أمام بصري وكنت أكرهه. انعكست صورة الصاعدين على تموجات الستارة. جرس يصلصل، وهي تواصل صنع الجدائل. حين أمكنها أن تجذبها بكل ما تملك من قوة كانوا قد وصلوا لتوهم. وكان بإمكانهم أن يأتوا ليحملوا الجثث ويخلوا المكان من رشاشات العوزي، وكان على أن أحتضن الولد وأشم رائحة التمرحنة، فربما تعود للنهر النوارس!

* نشرت بـ (اليوم) في ١٧ / ١ / ١٩٩٥

سطح البيت

كانت طفولتي ممتدة بلون الأفق الأزرق الذى لا تحده حدود . . وكان سطحهم واسعًا ، أما «الشخليلة» فعالية ، وعلى سطحها المبلط ببلاطات مربعة ، قريبًا من حافة الشقوق ، نبتت نباتات خضراء ، ترعرعت فى الشمس التى كانت تحتل المكان بأبهة وخيلاء ، وأينعت مع هبات الهواء الذى كان يأتى بحريًا ، منعشًا ، رقيقًا .

كن ثلاث بنات جميلات ، مع عصر كل يوم أراهن يقفن مصطفات على حافة السور ، أصعد فى إثر أمى ، وأشاغلهن من بعيد ، بأن أرمى حبات النوى الصغير فتنقر صفيحة قديمة نقرات يضحكن لها ، فيرمين لى حبات الجوافة والبلح فى الشتاء ، والكمثرى والبرقوق فى الصيف . ولما كنت أشتهى ثمار التوت وأرى البائع يصعد إليهن بسلته ، فقد كان علىّ أن أهتدى إلى وسيلة كى أذهب إلى هناك ، وأدق الباب بقبضتى الصغيرة وأطلب فى خجل مصطنع كرتى المطاطية . وكن يفهمن ويضحكن ضحكاتهن الملونة البريئة ، ويسمحن لى أن أدخل وأبحث عنها فلا أجد صعوبة فى أن أحضرها من الركن الذى رميتها فيه منذ قليل . كانت أصغرهن هى الأجمل ، كانت تقرصنى فى خدى ، وهى تغمز لى بعينها فأفهم إشارتها فى أنها كشفت ألاعيبى ، تسألنى عن أختى نوال وهل عادت إلى زوجها فأخبرها متأسيًا ، أنها مازالت عندنا ، وأن أمى توبخها كل طلعة شمس ، وتقول لها إن كل الرجال أعينهم زائغة ، وإن عليها أن تصبر ، وإلا خربت بيتها بيدها !

كانت الصغرى «هدى» تعطينى نصيبى من التوت الأسود ، وترسل

معى «باترون» وبخطها المنمنم الصغير كانت تهرب كلماتها لشقيقتى، وكنت أقرؤها، وأبتسم، كانت تكتب آخر القفشات، أعود بها منسلاً إلى البيت، دون أن تلمحنى أمى، فألتهم التوت بعيداً عن الأعين البصاصة وألمح ابتسامة أختى الشاحبة، ثم أرقب الهم ينزاح رويداً رويداً، وهى تعطينى نصف قرش مكافأة لى على الرسالة السرية، التى تزيح جبل الحزن بعيداً لدقائق.

كانت أمى غاضبة من أمهم، فقد خاطت لهم ملابس العيد ولم تدفع «الست» أجراً مناسباً. وكنت أصعد وأصفر صفارتى الضعيفة، فيلوحن بأيديهن، ويسألننى عن أحوال أمى وأختى، وصاحب البيت الذى يريد تنكيس المنزل وطردنا إلى الشارع. كن متلهفات لمعرفة هل نبقى فى جيرتهم أم نرحل ونترك أطلالنا فى مواجهتهم..

كانت الكبرى أذكاهن، تحصل كل عام على أعلى الدرجات، وتكرم فى عيد العلم، وتعود إلى منزلها بالوشاح الأخضر مزيناً بالورود البيضاء. وكان لها حول خفيف، لطيف، أضفى شيئاً من الغموض على شخصيتها. لقد كانت متحفظة معى لأقصى درجة. لم تكن تأخذ وتعطى معى فى الكلام، بل تهز رأسها دون أن تنبس بكلمة، وكانت أمى تقول إنها ستصبح طبيبة، وكنت أتخيلها دائماً على نفس الصورة فأراها تخب فى معطفها الأبيض وعلى صدرها تتدلى سماعة معدنية. كانت أختى أذكى منها، لكنها لم تصبح طبيبة ولا أمى فكرت أبداً فى هذا الاحتمال.

والغريب أن هنداً - البنت الكبرى الذكية - كانت تأتى قبل زواج أختى إلى منزلنا بكتاب الرياضيات، فتشرح لها نوال المسائل الصعبة، وتأتى أمى بكوبين من الشاى، وتصر على أن تبقى «الدكتورة» معنا حتى أذان العشاء. وكنت أرى أختى نوال - التى كانت تضربنى دائماً

لعنادى معهـا ـ تبـدو فـرحـة لأنهـا تتـوصـل فى كل مـرة إلى الجـواب الصحيح، فقدكانتا بعد انتهاء حل كل مسألة تُقلبان الصفحات، وتشهق أختى فرحة حين يطابق الجواب حلها الدقيق السريع، ولم تقل أمى مرة واحدة إنها سترتدى المعطف الأبيض.

إنه السطح، وكان أبريل قد أتى بغباره، ورياحه المتربة، حيث القطط تموء هنا وهناك. والدجاج يتقافز داخل «العشة» فى سطحنا الصغير. حين رأيت ثريا، تضع ستارة من القماش الخفيف بمواجهة سطحنا. كانت الوسطى وأمهر البنات فى الطهى، أرسلتنى نوال لأستفسر الأمر، فعرفت أن «جمعة» أخاهن الوحيد المدلل قد خطب ابنة المعلم يسرى تاجر البن الكبير والذى يمتلك فى حينا وحده عمارتين، ومقلاة لها شنة ورنة!

تعجبت أمى، ودقت صدرها بيديها: ومالهم البنات؟

أصرت أختى بفضول عجيب أن ترسلنى لأرى العروس وكانت قد جاءت فى سيارة فارهة ونزلت فى «زيطة» وكأنها فى ليلة زفافها رغم أن الأمر لم يكن يتجاوز الخطبة.

كانت الكرة المطاطية هى وسيلتى التى غزوت بها المعقل المنيع. رأيت العروس ترتدى ثوبًا رماديًا وتمسك بمروحة من الحرير وتبتسم فى بلاهة. لم تكن جميلة بحال. عدت إلى نوال، ولما رأتنى أضحك راحت تسألنى عما يضحكنى، وأنا أرقب فضولها. رميت بالمفاجأة التى لم تكن على استعداد لتصديقها: العروس دميمة، وغبية. بهتت أختى لكلماتى، ثم جاءت أمى ورمقتنى بنظرة متوعدة وحين رأت فى يدى قطع الشيكولاتة، أخذتها ورمتها من النافذة.

سمعنا الزغاريد، وجاءنا صوت المسجل عاليًا، كان عبدالحليم حافظ يغنى «الهوى هوايا» ورأيت عم عبدالحميد، والد البنات، يصعد

بصناديق المرطبات، كانت نوال تريد أن ترى العروس، لمحنا اهتزازات خلف الستارة وجاءت هدى وقالت لأختى فى همس مبحوح: عقبى لى.

وضحكت فأشرقت شمس الدنيا، وما لبثت أن جاءت هند. هزت رأسها باعتزاز. قالت فى خفوت: اتفضلى.

وانفرجت الستارة أكثر ورأيت ثريا بسمرتها الخفيفة، لوحت بيدها وهى تحمل صينية عليها «الجاتوه»: أرسليه لتأخذوا نصيبكم.

كانت تشير إلى، ورأيت أمى الحزينة دائمًا تقول بانكسار: عقبى لكم يا بنات.

وسرعان ما عادت إلى ماكينة الخياطة. وفى الوقت الذى هب فيه الهواء وطير الستارة بانت العروسة وعرفت أختى أننى لا أكذب، فقد انحبست ضحكتها.

قالت ثريا فى لوم: لم لا تعودى إلى بيتك!

وقبل أن تجيب أختى بكلمة خرج «جمعة» فى أبهى ثيابه، وقال بلهجة آمرة: يالّلا يا بنات اتفضلوا على البوفيه. ثم أحكم إغلاق الستارة دون أن ينظر تجاه سطحنا نظرة واحدة.

* نشرت بـ(اليوم) فى ١٩/٥/١٩٩٥

غربان الشمس

استدار فجأة وأطلق النار على صدر غريمه. حين سقط كان لارتطامه بحافة الرصيف دوى مكتوم. قلب الجثة بقدمه، ولاحظ أن الدم كان ينزف داكنًا، ودائرة تتسع فيتشربها النسيج القطنى الشاهق البياض. كانت اليد التى ربتت على كتفه لا غليظة ولا حانية، بل يداً بلا إحساس تقريبًا. أوجعه أن يصلصل القيد الحديدى بين يديه وهو يتجه إلى الممر المسقوف. تأمل كتابات السجناءالقدامى؛ بعضهم شُنق، وبعضهم مات فى قبوه. القليلون هم الذين رأوا الشمس مرة أخرى، هنا لا شمس، لا أقمار. بقايا ندم ودم، وسجائر مخبأة. ودموع فى بداية الأيام سرعان ما تجف ولا يبقى سوى ألم شاحب وانتظار موت غير معلن، موت يتسحب فى بطء إلى الروح.

لم يدهشه أن تتسلل الأفعى ليلاً لترقد تحت فراشه القذر. أزعجه فقط أن يرى الجلد المرقط. ودّ أن يتحسس ذلك الملمس، القريب من بشرتها. لكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة، وحين خرج اللسان مشقوقًا وباحثًا فى الهواء عن شىء وهمى تراجع واصطدم ظهره بالجدار. عليه منذ الآن أن يتراجع، وأن يحسب خطواته حتى لا تصطدم الجمجمة بالحائط الصلد.

هى أيام الحبس الانفرادى. فى مراته السابقة كانوا يأخذونه بعد أن يرتدى ثيابه اللائقة. كان يصر أن يحلق ذقنه، ويضع الكريم على بشرته، ويذهب أنيقًا. اليوم الوحيد الذى لم يسمحوا له بذلك، حين اقتادوه بالبيجامة بعد ساعة واحدة من الانتهاء الدامى للعرض العسكرى..

وسط الحشود جلس القرفصاء. كانوا يعرفونه من صوره بالصحيفة. رغم أنه أخبر زينب أن تسحب من الأرشيف كل صوره الحديثة ليظل محتفظًا بوسامة ما، على أقل تقدير لدى من لا يعرفه خاصة الفتيات الصغيرات اللائى كن يتصورونه فى منتصف العمر.

حين زار لندن، ارتدى (الجينز)، أمسك يدها، قبلها خلسة فى (الهايد بارك) لم تقاوم، لكنها لم تبادله رغبته: الأخضر أكثر زهواً هنا. لم تكن لترد إذ كانت تفكر فى وسيلة للخلاص من رائحة عرقه وسطوته، وكلماته التى حفظت عن ظهر قلب بداياتها ومثواها الأخير!!

فقط بعد دقائق أخبرته أنها ستتزوج من طبيب شاب هجر عيادته، وأغلق خلفه باب مرسمه، وأدار معركة صاخبة مع المعجون والسكين ليرسم منظراً يؤرقه كل ليلة، لا يعثر له على اللون الملائم، اللون الذى لمحه فى رؤياه، هو خليط من الأحمر الزاهى والقرنفلى، لون لا حدود لبهجته.

حين باع مقاعد الزبائن الجلدية، وأجهزة خلع الأسنان الحديثة التى كانت تصنع دويًا فى رأسه يمنعه من النوم أخبرته - أستاذها الفاضل - أنها ستتركه، وأنها ستشارك الطبيب بحثه عن اللون. أما هو فقد ضحك بصوت عال لهذه الخرافات، ضحك لأنه أدرك أن هذا الطبيب غبى. وهى أكثر حماقة منه، لأنهما يبحثان عن المستحيل، إذ لا يوجد إنسان فى الكون عثر على اللون الذى حلم به فى رؤياه.

حين ضبطوه يهرب قطعة الصابون (نابلسى) اقتادوه إلىٰ الحكمدار، أنّبه وحرمه من فسحة الخامسة لمدة ثلاثة أيام. وللمرة الثانية وجدوا صابون (النابلسى) وكانت تأتى به عندما تزوره، وتدسه خفية من بين الأسلاك، تسبقها رائحتها النادرة ولون ثوبها الأزرق كلجة بحر

عات يسبب له الحرج، ويفجر داخله نفس التوجس القديم. تقول الآن: أحمر وقرنفلي؟!

لم تكن قد التقت بعد بالطبيب الفاشل، هذا الفتى النحيف الذى لا يرى إلا بنظارة سميكة. لم يكن قد سيطر على تفكيرها إلى هذا الحد. وهى أيضاً لم تعطه خياراً ليحدد مستقبل علاقتهما. لقد مرغت كرامته فى الأوحال حين صدمته بهروبها.

كان يظن أنها ستلمح له بمسألة الزواج، وقد بنى خططه على هذا الافتراض، كان لديه ألف مهرب ومهرب، الشيء الوحيد الذى لم يعمل له حساباً أن تواجهه بخوائه: سأذهب. أن تهجر مكتبه وحياته، تبعثر كل أوراقه، وتهز قناعاته بالأشياء، تتركه هكذا عارياً إلا من حسرته.

يعترف أنه لم يمنحها سوى المال، وفساتين باريس، وبعض قطع المجوهرات المعقولة الثمن، وفراء الثعلب القطبى الذى ارتدته مرة واحدة وخافت منه فى ليلة العودة، فخلعته وأعطته إياه مرتعدة من البرد. كانت له نظرة ماكرة رغم أنه محنط، والصانع الماهر خلع العينين وثبت مكانهما زراً لامعاً يبرق، لكنه على أيه حال يثير قليلاً من الرعب خاصة للنساء اللائى مررن فى أطوار حياتهن البائسة بأقمشة كالكستور والباتستا، وبأطعمة كالسريس والجعضيض.

هى التى دخلت ووضعت بين يديه استقالتها. لقد حاول أن يضحك بشدة، انفجرت أسنانه المسوسة عن ابتسامة مستحيلة. راح يستدير فى مقعده الدوّار. أوشك أن يبكى بين يديها، أو يصفعها، أو يغلق عليها الباب ويغتصبها، كمجرم عنيد يعرف أصول التحدى السافر. لكنها بدت أقوى منه فى تصميمها.

خرجت إلى عرض الطريق. كان هناك صعلوك شرير ينتظرها بسيارة متهالكة طمس الصدأ سقفها. سيارة أشبه بخنفسة سوداء تثير التقزز.

اختفيا وسط زحام المارة فى شارع شريف. ضرب المكتب بقدمه. وكانت الحجرة المجاورة خالية من كل شىء إلا من رائحتها، أما لون الأحمر القرنفلى فقد كان يتمدد على الجدران، ويزحف فى إصرار على السقف فى انحداره الأملس بل يكاد يصبغ المكاتب والدوسيهات والأوراق فى زحفه الضارى.

كان يظن أنه قادر على أن يهرب من جرمه، لكنها وشت به، وحين اقتادوه للتحقيق، أثبت لهم بما لا يدع مجالاً للشك أنه كان فى الإسكندرية، وبالتحديد فى كازينو (سان استفانو)، ويوم وقع الحادث عقره كلب أرستقراطى لطيف فى ساقه الممددة، فصرخ وحملوه إلى المستشفى القريب وأعطوه إبرة فى سرته، وعرضت عليه السيدة بمنتهى الأسى والتحسر أن يحدد التعويض الذى يريده، كانت تقول ذلك بأعين دامعة، وهى تقرص أذن الكلب وتصيح فيه بغضب رقيق: عيب لوسى!.

وقد كان بريئًا لأنه لم يمسك مسدسًا من قبل قط، لكنه كان يعرف أين سيُقتل الوغد وممن! وقد أعد المال اللازم ليكافئ من أطلق الرصاص، إلا أن الغربان السود خرجت من جرحه، وهو ممدد، وحطت على شباك نافذته، وطارت متكاثرة فى اتجاه الشمس حتى حجبت الضوء. لم يجد مفراً من الاعتراف بأنه قد قتله، بامتعاض لا مثيل له، دون أن يراه إلا مرة واحدة من نافذة مكتبه، ولم يغلق ملف القضية، لأن الغربان عادت إلى الجثة، فقامت تسعى من جديد، وبقى ـ هو ـ بلا شعور بسيط بالندم، بلا أقمار، والشمس نتف من غربان سود!!

* نشرت بـ(اليوم) فى ١/٥/١٩٩٥

خلع الجذور

خلع الجذور، فعلقت بها بقايا الطين. أدخل أصابعه في الفراغ الذى رآه رغم الظلمة يتسع لتختفي فيه قبضة يده المضمومة.

وعلى التل حين هبطوا، كانوا بأحذيتهم المطاطية الغليظة في طابور السادسة، يجأرون بصيحتهم التقليدية. حين اندفعوا إلى التبة حصدتهم رشاشات «العوزى» وبقى مع عبدالحق ويسرى، أمكنهم أن يسحبوا الهاون ويختفوا وراء ساتر من غلالات رملية خلف شجرة سدر.

كانت الشجرة متفحمة لكنها تحمى أجسادهم، وتمنع عنهم العيون البصاصة، عيون الأعداء الذين يطلقون نيران رشاشاتهم بتشف وغل.

ظل يبحث عن الخوذة، وقايش الوسط، ورقعة المعدن التى تحمل اسمه ورقمه العسكرى وخطاب داخل حافظة جلدية تركها قبل تسعة عشر عاماً. في الليل وعلى امتداد شهر كامل يشعر بتلك اليد تهزه وتلكزه في جنبه كي يذهب ليحضر تلك الأشياء التى تركها رفيقه قبل أن يهوى شهيداً. دفنها في هذا الموضع بالذات على أمل أن يرجع بعد انتهاء العمليات، ويعطيها زوجته.

امتدت الأيام، تكاثر الجرحى، وتم إخلاء أكثرهم إلى المؤخرة. أصابته شظية في ساقه، دخل المستشفى الميدانى في (القصاصين)، وخرج يعرج، سرحوه من الخدمة. لم تكن أشياء ذات قيمة، ما معنى أن يذهب إليها ويعطيها إياها؟ لا تعنى لديها سوى نكأ الجرح من جديد.

جرح لم يندمل لروحه التى شققتها المآسى.

لو أن رفيقه ترك نقوداً أو ذهباً أو حتى ساعة يده لأجبر نفسه على الذهاب بنفسه مهما كان المكان بعيداً، وهل ينسى الباب الذى انفتح فجأة ليسقط الحكاء الصعيدى على الطريق لينزف قصصاً دامية عن فقراء يفترشون الرقعة الزرقاء.

من أدراه أن السيارة لا تفعلها، لن يجد من يوصل أشياءه لزوجته التى كلما لمحته يتقلب فى سريره أرقاً وضعت يدها على رأسه وقرأت الفاتحة ليهدأ ويشفى.

لم تفلح الحبوب المهدئة، ولا إقناع الأصدقاء له على المقهى بأن موقفه سليم. إذ ماذا تفعل زوجة غاب عنها زوجها بخوذة وقايش وسط وسلسلة تحمل رقعة معدنية بلا شك أن السنين قد محت حروفها؟

خلع الجذور، وقلب بيده التربة، غرف الحصى والرمال، وبقايا القواقع القديمة. هو نفس المكان، لقد حدده يومها بوضوح أمام ملجأ التعيينات، وفى مواجهة ترعة الإسماعيلية، على مرمى حجر من برج الاستطلاع الذى أزيل الآن. كل المعالم تغيرت إلا نور فى قلبه يهديه. الأشجار حوله مصفوفة ومثقلة بثمرات المانجو. جسر حجرى مازال يحتفظ بشكله وهيئته، وإن تحطم سوره الذى كان يجلس عليه أحياناً قبل الخروج لخدمته الليلية «الكينجى» دائماً.

جاء بالكوريك وحمل الطين الناشف وأبعده قليلاً. بحث بأصابعه بينما استند بركبته على الحافة. لم يجد سوى عبوات بلاستيكية لشامبو الشعر، ومسحوق تجميل الوجه وعظام طائر تفتت فى يده، لا وجود للخوذة مطلقاً.

لو كانت هنا للمسها بيده أو لاصطدم جاروفه المعدنى بها.

أوشك أن ينسحب فى هدوء ليخبر الزوجة بالأمر، لعله يرضى ضميره. لكنه فى نفس اللحظة التى قرر فيها العودة أبصر رجالاً على

امتداد الترعة، وفى مواجهة الموقع القديم يحفرون بأصابعهم، ينبشون فى صمت مريب، رأى ذلك رغم أن القمر كان غائبًا ونور المصابيح الشحيح لا يكاد يبين الملامح.

كانوا ينقبون عن أشياء لا يعرف أهى قريبة الشبه بما يريد أم لا؟

ولقد انشغل كل فى البحث، أما هو فقد وضع يده تحت خده ليفكر من جديد فى هؤلاء الرجال. لقد تأكد الآن بحدس لا يخيب أنه قد رآهم قبل ذلك فى ريعان شبابهم منذ سنوات بعيدة!!

* نشرت بـ(اليوم) فى ١٩/ ١٢/ ١٩٩٤



ذاكرة البندقية

ـ نوبات الراحة

هذا الذى كان من المقاتل، إذ إنه أدرك أنه محاصر من الجهات الأصلية الأربع، فأحاط جسده بحزام الديناميت وقبع فى خندقه البرميلى انتظاراً لدبابة «الباتون» وحين سمع هدير جنزيرها تهيأ لملاقاة الموت، وكان يتصوره بلون الرماد وبامتداد الأفق، يغوص فى متاهته، ويتخلى عن كل تلك التفصيلات المرهقة، لكن الذى حدث ولم يكن على استعداد لتوقعه أن الدبابة عندما أصبحت على مقربة أمتار قلائل عطبت، وكان الليل يزحف بضراوة، ويوشك أن يبتلع آخر خيوط الضوء الواهنة، فى ذلك التوقيت الحرج حلقت طائرة عمودية وألقت بقنابلها فأصابت الدبابة بطريقة الخطأ.

صار موقفه أكثر حرجًا، وأدرك أن عليه أن يعيد حساباته. فك الحزام العريض وتحسس خصره المرهق ولمس بأصابعه الجلد المحمر المشدود فى تسلخات صارت تؤلمه.

أطاح انفجار الذخيرة ببرج الدبابة، وكان جنود الأعداء يقفزون هربًا من الجحيم المشتعل. يكاد ريقه أن يجف، فقد آخر قطرة من «زمزميته» منذ أمس، زحف مستتراً فى غطاء الليل. كانوا كلهم جرحى يئنون. لمح جثة أحدهم ممددة وبجوارها شجرة صبار تكاد تذوب فى العتمة. زحف أكثر، وتزايد الأنين، انتزع السونكى من «الجفير» وحرك نصله أمام عينيه، وركض نحو جسد الدبابة العملاق.

كانوا يرطنون بالعبرية، وهو لا يفهم منها حرفًا. ابن خاله صبرى تخرج العام الماضى فى كلية «الألسن» وكان يمر عليهم أمام حانوت البقالة، ليمزح معهم ويقول وهو يغيظهم «شالوم» فيرمونه بقطع الحجارة، وهو يقفز ويطير من أمامهم مصطنعًا الخوف. أين تراه الآن وقد رآه حليق شعر الرأس منذ شهرين بعد انخراطه فى الجندية؟

كان أحدهم يمد يده نحو فمه، تقدم بحذر من جسم الدبابة، كان الدخان مازال يتصاعد، ورائحة الدم مختلطة بالبارود تملأ المكان، وهدير مدافع متباعدة لا يكف، وعمر من الثأر يمتد منذ تاريخ بعيد لا ينتهى. غاص فى جوفها الملتهب وعاد ببقايا «جركن» ماء راح يصبه فى زمزميته الخالية حتى انسكب، لم يكن يرى الأشياء بوضوح، هداه الأنين إلى أماكن الجرحى، راح يصب فى أفواههم المفتوحة بعض الماء. تمددوا فى نفس أماكنهم، حاولوا أن يتساندوا عليه، كانوا يتحدثون وهو صامت. هل ظنوه واحدًا منهم؟ لا يعرف. كل ما فى الأمر أنه تأكد أنهم شربوا جميعًا من زمزميته. وارتووا فى هذا المكان القفر، وحين ارتفعت يده بالزمزمية ليشرب، وكادت الحافة المستديرة تلمس شفتيه. شعر بنصل حاد يشق كتفه، كان أنينه مذبوحًا وقاسيًا. زحفوا تجاه الشرق وهم يحاولون فى صعوبة أن يخففوا من جروحهم، وحروقهم، وحين رفع يده مشيرًا لهم نحو فمه كى يطفئوا ظمأه. عاجله خصمه الذى شرب من يده الماء منذ لحظات بطعنة أشد إيلامًا. ومضوا تاركين إياه يتخبط فى دمه. وعلى مقربة منه حزام الديناميت، وسونكى يلتمع تحت ضوء القمر، وكتاب صغير للمتنبى، كان يحب أن يقرأه فى نوبات الراحة!

حين أوشك الليل أن يتردى قتيلاً تحت أقدام طلائع النهار تحصنوا فى حفرهم، وقبعوا خلف السواتر ينظفون أسلحتهم بـ«الحربى». سمح لهم القائد بإشعال سجائرهم بعد أن كان الحظر مفروضًا على الجميع حتى أن عقلهم كاد يطيش.

وضعوا بعض العبوات فى حفرة صغيرة وأشعلوها ووضعوا فوقها إبريق الشاى النحاسى الذى سرعان ما اهتز تحت وطأة غليان الماء. صبوا بالقسط أنصبتهم فى أغطية الزمزميات، وعلى حين غرة انطلقت المدافع المعادية تصب جحيمها على الموقع. لم تمتد يد لتضع الكوب، بل ظلوا يدخنون بشراهة ويرتشفون الشاى فى تلذذ. كان القائد يشعر بأن تلك اللحظة الفاصلة هى التى تعيد شحن مقاتليه بروح إنسانية جديدة. لذلك لم يعترض حين خلع جندى الإشارة سترته وقد عصفت به لحظة صفاء إنسانى نادرة. إذ راح يرقص فى الساحة المكشوفة وهم يهمهمون معه ويغنون: «على بلد المحبوب وديني». تصفيقات كلها متعة، وأشجار قزمية صغيرة تنصت للغناء.

حين انتهت سجائرهم، وألقوا بالبقايا المشتعلة فى الرمل الأصفر البارد، قبضوا من جديد على بنادقهم الآلية.

بينما كان جندى الإشارة قد سكت تمامًا بعد أن اخترقت شظية كتفه، وتوغلت شظية أخرى جهة القلب. قلبوه وصنعوا حفرة عميقة ودفنوه، وأمطروا المواقع المعادية بقذائف الهاون.

أما القائد فقد أمر جنوده أن يواصلوا الغناء، ودعم طلائعه المهاجمة

بأفراد القناصة. لم يكد القتال المتلاحم ينشب حتى سقط للأعداء جنود كثيرون.

وسط الدخان وهشيم صناديق الذخيرة، وبقايا علب التعيين كان مكانه معروفًا.

وكان القتال كراً وفراً، وإقبالاً وإدباراً، وقتلى وجرحى. وحصاراً ودماراً. وفى كل مرة ينقص عدد المحاربين.

أما من بقى فقد كان يذهب إلى نفس الحفرة، ليسقى بغطاء زمزميته نبتة خضراء، أورقت رغم العفار وأنفاس الموت.

وفى نفس المكان الذى ضم هيكل جندى الإشارة كان الهواء كل ليلة يهب هباته المألوفة، فيسمع جنود الخدمة الليلية تلك الأغنية: «على بلد المحبوب وديني»!

ـ حبة الجوافة

حين انضم إلى وحدتنا العسكرية، ولاحظنا قصره الملفت للنظر كنا نتعمد دائمًا أن تكون نوبة «الكينجى» القاسية من نصيبه. وحين تتهادى سيارة التعيين على المدق الجيرى، كان يسرع بالأوانى المعدنية الخالية ليعود بها ممتلئة، تفوح منها رائحة الطبيخ، ورغم ذلك كان يحصل على أقل قدر دون أن ينبس بكلمة واحدة. وفى آخر مرة ونحن فى مناورة الخريف جاءت السرية سلة بها ثمار الجوافة، حاول الرقيب مصطفى أن يوزعها بالتساوى فيما بيننا فاكتشف أن واحداً منا لن يحصل على نصيبه. تحشرج صوته وهو يسأل: من الذى يتنازل عن نصيبه هذه المرة، وفى المرة القادمة أعده بثمرتين؟ الجميع صمت وحاصرته العيون، فهز رأسه راضيًا، والتهم الجنود الثمرات دون أن يفكر أحدهم فى هذا التعس الذى جنى عليه قصره، وحين أرسلوه ليأتى بتعيين الأسبوع من السجائر عاد بالكمية مضاعفة، ففهمنا أن درجة الاستعداد على وشك أن تُرفع.

نقصت علبتان. وحين اتجهت الأنظار نحوه كى يتنازل كعادته انقض على نصيبه، واندفع إلى الملجأ وهو يزوم كنمر هائج.

والآن، حين يشتد قصف مدفعية الهاوتزر، ويشعر قائد السرية بحرج موقفنا، يسأل بنظرة كلها لهفة: من يصلح أسلاك الموقع؟

يزحف كالخنفسة السوداء، فى إصرار يتحرك ويبحث عن الأسلاك المقطوعة ليوصلها، وهو يبتسم نفس الابتسامة الساخرة التى لا تعنى شيئًا.

بعد تطوير الهجوم ووقوع حرب الدبابات التصادمية حوصرت النقطة، وطُلب من قائد السرية رفع العلم الأبيض، كان الاستسلام يعنى نهايتنا، وكانت قطرات المياه قد نفدت تمامًا. أما معلبات الفول وقطع الجبن المحفوظة فلا تكاد مع الخبز القليل اليابس تسد الرمق.

ننتقل من موقع إلى موقع والنقطة محاصرة، والقصف يشتد كلما أوغل أكتوبر فى معانقة ساعاته، وهو من خلفنا يجر «المخلة» وهى ثقيلة. أقول له: عنك، فيرفع يده رافضًا مساعدتى.

لقد أوشكنا على الهلاك، ولم نتمكن بعد من فك الحصار الصارم.

رفع صوته النحيل ونادى علينا جميعًا. صرخ القائد فيه وهو يرانا نتجه ناحيته: ماذا جرى لك؟ لم تريدهم؟ لم يرد، فقط رأيناه جميعًا يفك حبلاً غليظًا كان يربط به عنق «المخلة» ويسكب كل ما فيها وكأن حاويًا يلعب بمهارته وخفة يده ألعابه المثيرة، تناثرت معلبات لا حصر لها، أرغفة يابسة، قطع البسكويت، أسماك محفوظة، زمزميات مياه ممتلئة، بعض حبات الأسبرين. مخزن تعيين كامل كان يخفيه هذا الماكر. ونحن الذين كنا نعتقد أننا نضحك عليه، كيف بالله خدعنا؟

نظرنا نحوه ويده تمتد إلى هدف محدد، تناول حبة الجوافة، ضحك وهو يقضمها: أظن أن هذه حقى. وضحكنا جميعًا ونحن نعانق هذا القصير الماكر الذى مد يوماً فى عمرنا، قبل أن تفلح قوات المشاة فى كسر الحصار وإنقاذنا من هلاك محقق!

* نشرت بـ(اليوم) فى ١٠/١٠/١٩٩٢

صحراء المقاتل

وضع النياشين كلها على صدره، أصلح من هيئته، وابتسم فى المرآة، بان وسيمًا وإن لم تفلح عملية التجميل فى إخفاء عظمة الوجنة اليسرى التى تشوهت فى آخر حرب خاضها . وضع عطر البنفسج على راحته، ثم غمر الوجه فى انتشاء، هبط الدرج وهو يصفر بفمه .

كان الرقيب ينتظره أمام العربة «الجيب». رد على التحية العسكرية، وجلس فى مقعده .

غاص فى الكرسى الجلدى الوثير ، وفجأة تنبه أن ذلك الكرسى لم يكن مريحًا مثلما هو الآن، تحسست يده أطرافه، فوجئ بملمس فرائى غاية فى النعومة، دعك جبهته محاولاً تذكر التفاصيل دون جدوى. ارتطمت مقدمة العربة بجسم صلب، نزل الرقيب وأزاح العائق، وقبل أن يتهيأ للانطلاق أمره بإشارة من يديه أن ينتظر لبرهة .

هبط رشيقًا من العربة، وتأمل الحجر فى ضوء الفجر البرتقالى الغامض، حدق أكثر وقلّب الجرانيت الذى يحمل حروفًا من أسماء يعرفها جيداً، جرانيت خشن ملقى فى الخلاء، رفعه بين يديه وتحسس بخده برودة الحجر .

ضغط الرقيب على نفير السيارة مرتين، بدا مربد الوجه وهو يعاود الضغط .

عاد بالقطعة الحجرية ووضعها فى المقعد الخلفى، وفيما كانت السيارة تنطلق إلى الأمام، كانت السواتر الرملية . مازالت خرساء تخفى تحركات الأعداء .

حاول أن يتذكر كلمة سر الليل فلم تسعفه الذاكرة، وضع يده فى جيب سترته وأخرج صورة «هيثم». تأمل الوجه الملائكى الجميل، وتأكد الآن أن أمامه مهمة لابد من إنجازها قبل فوات الأوان.

أشجار الكافور بدت ذابلة، والنهر الذى كان يؤنس وحدته أدار له وجهه.

كانت السيارة تنساب فى نعومة على الطريق الأسفلتى وكلما تعثرت فى حجر، نزل وأتى به، ووضعه على نفس المقعد الخلفى.

انطلق صوت «البروجى»، وقد وصل فى موعده تماماً دون أقل تأخير، تراصت عربات الجيب كلها باللون الكاكى المموهة بشباك صفراء اللون.

انطلق المدفع إيذاناً ببدء الاحتفال التاريخى، سمع الصوت يتردد صداه فى الخلاء: كتفاً سلاح! ردت مدافع من الجهة المقابلة، ظنها ترد التحية، لكن الانفجارات التى توالت كذبت ظنه.

كانت الشظايا تتناثر والدم الساخن يملأ صدره. نزع النياشين وألقى بها على الرمل، انبطح الجنود فى المؤخرة، وقبضوا على بنادقهم، ميز بأنفه رائحة البارود، وأدرك الآن فقط أن عليه أن يحارب حتى آخر طلقة وقبل أن يعطى أوامره، هزته طلقات الرفاق بالذخيرة الحية، انطلقت بغزارة نحو الجهة المقابلة.

وكان عليه أن يتحامل على نفسه، رغم جرحه العميق فى الصدر، كى يزحف ويعود بأحجار الجرانيت، ليحصن خندقه بتلك القطع التى تأكد الآن دون أدنى شك فى احتمال خطأ، بأنها أجزاء من النصب التذكارى للجندى المجهول، طاوعته ساقاه وبدأ فى رص القطع، وقبل أن يبدأ فى إطلاق النار بضراوة لم يعهدها من قبل لثم صورة هيثم وأحكم رباط خوذته الجلدى!

* نشرت بـ(اليوم) فى ١٧/ ١٠/ ١٩٩١

منيـــة

يد المنية، والأزرق زاخر بالأسرار، يفضحه الضوء ولا يرعوى. ذلك تاج قد وضع بمهارة على الرأس الذليل. كدت أنسى موعدها. هى لفتة منى إلى مدخل المقهى. السيقان ممددة، مشدودة وأخرى مرخية لأصحاب ناموا بالسأم وآخرين رحلوا إلى موانيهم البعيدة على جناح أحلام فضية. قدمت لى فنجان القهوة التركى المحروق بيد مرتعشة. بحثت عن أثر للضياع الذى أشعر به لم يكن هناك ما ينم عنه.

يد المنية دفعته فسقط عن قاربه، ونهشته أسماك القرش، فخرج مزقًا من لحم تكسو العظام. غطوه ببطانية صياد أسماك قديمة، وعلى أطراف أصابعه بقايا أصداف. الريح حين هبت كانت باردة. لم تشعل النساء قناديلهن كالعادة، عصبن الرءوس بمناديلهن المطرزة، وجلسن على عتبات البيوت ينتظرن مجهولاً يخفف عنهن نوبات البكاء.

يد دفعته إلى مواطئ أقدام تلك الأشجار التى تغفو على الساحل، لقد حرق أوراقها غل قديم، وعقد من لؤلؤ، زائف كان على الصدر يهتز.

السرير خال إلا من شجار ليلى لم يتكرر منذ سنوات بعيدة، فقط رائحة التبغ من غليون له مبسم من العاج، قالت له وهى تعقص شعرها ثم تعيد لم أطرافه تحت إيشاربها: أطلت السفر هذه المرة. بحثت عن بنسة الشعر فى حقيبتها، وحبات المنوم ابتلعتها، نامت بينما هدير الموج تناءى فى هدوء: وش.. وش.

خلت الصدفة على صدغها وأنصتت. كان يدخن غليونًا يليق بفنان عظيم. كانت تدرك أنه صعلوك صغير، متشرد، لا يعرف كيف يشرب

الحساء دون أن تتساقط القطرات على ذقنه الملساء. أثواب الملاجئ قصيرة، ولكنها واسعة، لا تكاد تخفى نحافتهم. أيديهم التى امتدت إلى أعقاب السجائر ارتعدت فى الليل البارد حين جلسوا على حافة المرسى يدخنون، يلعبون الورق.

البنت التى تبيع الجمبرى فى سلتها الخوصية أتت. كانوا يحبونها جميعًا، وكانت تسخر من فقرهم وحفائهم وقذارتهم. كلمته يومًا وهى تسوى فستانها الأزرق بياقته البيضاء كبحارة صغيرة:

ـ هل تحب سجائر البحارى؟

كانت له ذقن بيضاء صغيرة وعينان زرقاوان، وابتسامة ماكرة، خلفه طوق نجاة تحيط به حبال.

نقب فى أكوام النفايات عن آلة موسيقية قديمة، آلة يعزف عليها بأصابعه، أو ينفخ فيها بفمه، لم يجد إلا برتقالات معطوبة، وعظام أسماك هيكلها يحمل رأسًا مطبوخة وخبزًا يابسًا لوحته الشمس. قال لها يومًا فى وله لا يعرف كيف يخفيه:

ـ أحب البحر.

ضحكت من خوفه وطوقت بيديها الطريتين رأسه: وأنا؟

حين شعر بسخونة تلفح وجهه فر هاربًا، وطقت عظمة عرضية برقبته. استسلم لنوم لم يأت.

وهى أتت ووضعت تاجها وخلعت سوارها، ومضغت قطعة الشيكولاته، كانت رائحة الكاكاو تطغى على (زفارة) المكان. نظر ناحية الفنار لم يجد ضوءًا واحدًا، كانت السفن تتقاذفها الأمواج. وعلى متنها البحارة يصخبون والمنية تدفعه إلى دوامة لا تكف لحظة عن الدوران المحموم.

* نشرت بـ(اليوم) فى ١٩٩٢/٦/٢٠

البحث

صحا من نومه مغتبطًا كما لم يحدث معه منذ ثلاثة أعوام، تأكد أن حقائبه تحمل اسمه في وضوح، اختبر متانة الأيدى الجلدية والسيور، مر بيده على الأقفال.. أصبح مهيئًا للعودة التى انتظرها مواسم الشتاء والصيف، والخريف.. هل يا ترى مر الربيع من هنا؟ تأكد بعد معاودة أيامه المريرة أن زهورًا لم تتفتح وأن عصافير لم تغرد.. الحق يقال أنه سمع مرة عصفورًا يقف على شجرة لوز جرداء يشقشق فى أسى.. كان ريشه رماديًا ينفضه فى خوف ويطير من غصن إلى غصن.

ظل يؤجل عودته ليجمع أكبر قدر من المال، وليتمكن من شراء السيارة وقطعة الأرض.. هرش رأسه وفتح النافذة التى تطل على الطريق. كانت الأشجار تغفو على الطوار.. الشوارع خالية ومبتردة وحزينة.. حاول أن يلوذ بصمت من فولاذ.. كاد ينسى قميصه الجديد الذى نشره ليلاً على الحبل الوبرى.. انتزعه بعنف غير مقصود، فتطاير مشبكان.. أغلق النافذة وقرر ألا ينزل لإحضارهما.. ما قيمة مشبكين..؟

إلا أن يده وفى غفلة من عقله الشارد امتدت لتفتح الباب، ورأى نفسه يهبط الدرج ويبحث فى الضوء الخافت عنهما.. كانت القطط نائمة تحت أعمدة النور، وكان فى قلبه وجع لم يدر مصدره.. بدأ بحثه تحت النافذة مباشرة، عثر على فرشة حلاقة، ومفتاح صدئ، وقارورة عطر فارغة، وأوراق بيضاء من غير سوء تحمل فى الركن الأيمن عبارة: زوجى الحبيب.. ثم فضاء من الصمت.

حـاول الصـعـود، لأن الأمر لا يسـتـحق كل هذا العناء.. لكن دافعًا خفيًا ألح عليه أن يعاود البحث.. وضع يده اليسرى في جيب سترته ومـضى يحـدق في الجـوانب والأركـان. سـأل نفـسـه في لوم: هل للمشبكين هذا القدر من الأهمية..؟ ولأنه وصل إلى نقطة اللاعودة فقد قرر أن يواصل البحث مهما كلفه الأمر.. تحسس في جيب بنطلونه تذكرة الطائرة.. بالأمس ذهب في سيارة صديقه كمال وتأكد من موعد المغادرة وحصل على الرقم الكودى للحجز، وأكد له موظف مكتب الطيران ضرورة التواجد قبل موعد إقلاع الطائرة بساعتين على الأقل.

حدق في عقارب ساعته وكان الضوء مخنوقًا كعادته في هذا الوقت من الفجر، صعد السلم وأحضر بطاريته وأشعل سيجارة بيد مرتجفة.

لقـد اشـتـرى لهند كل شيء: الفـيـديو، والمسـجل، والخـلاط، وزجاجات العطر الباريسية، وزاد على ذلك هدايا ستبهجها وتجعلها تخرج عن طورها.. لا شك أن هندًا ستطير من الفرح، وستغنى له كما كانت تفعل منذ ثلاث سنوات. «يا تمر حنة.. ونيلنا غني»..

ويمكن أن يأخذها في زورق ساعة الغروب ليشهدا معًا كيف تغطس الشمس في غابة النخيل مضرجة في دمها. آه.. تذكر الآن فقط أن قطعة الأرض التي سيشتريها يجب أن تواجه تيار الهواء البحرى، أما السيارة فلابد أن تكون من طراز عصرى وتعمل بالأزرار..

انحنى يبحث تحت الأوراق الجافة الذابلة، مضى يدوس عليها فتصدر خشخشة ذكرته بسنوات الصبا والبحث عن الفراشات الملونة في الحقول المفتوحة.. وهل هناك حقول مغلقة؟ وماذا تفعل بمشبكين عتيقين من الخشب؟ إن الوقت يمضى والعقارب تزحف بإصرار.. صار أكثر إصرارًا على البحث، وحين اعتدل بجذعه ونظر بضيق إلى ساعته، تأكد أن عليه أن يقرر الآن وبلا مراوغة هل يصعد ويأتي بحقائبه

وينطلق إلى المطار!

جاء كمال بسيارته.. اندهش لأن الحقائب لم تنزل.. خطف منه المفاتيح وصعد بمفرده وهبط يتعثر في الحقائب الثقيلة. سأله عن أي شيء يبحث.. أخبره أن مشبكين قد طارا فيما كان يحضر قميصه المنشور على حبل ليفي. فغر كمال فاه، وضرب كفًا بكف.. حاول أن يقنعه أنه يمكن أن يشتري ما يشاء من مشابك وبمبالغ تافهة.. لكنه أصر في عناد على موقفه: إنني أريد هذين المشبكين لا غيرهما؟

وبدأ كمال يبحث معه في غير اقتناع، وكلما مر مزيد من الوقت أصابته عدوى أن المسألة ليست على هذه الدرجة من البساطة.. ولقد أقلعت الطائرة وحمي وطيس الشمس. وانسابت السيارات في نهر الشارع.. وهما يبحثان بلا كلل أو ملل عن مشبكين عتيقين من الخشب.. مازالا حتى اللحظة يبحثان!

* نشرت بـ(الجزيرة) في ١٥/ ١/ ١٩٩١



الوجع الثانى:
حنين قديم

كتبت هذه القصص في مدينتي دمياط ورأس البر في الفترة من أغسطس ١٩٨٩ إلى ديسمبر ١٩٩٠.



غرفة العمليات

كانت الردهة فسيحة ممتدة، دخلت بمعطفها الأبيض الشاهق، والسماعة تتدلى من عنقها. مد يده لها مستسلماً، قال لها كلمتين: أرجوكِ حاولى.

أشارت له بالصمت. تمدد على فراشه مغمضاً عينيه. تناولت يده، جست نبضه المتسارع، ثم بغتة أخرجت من المطهر مشرطاً معدنياً مصقولاً، وشقت صدره مبتدئة من أعلى السرة حتى أسفل الثدى الأيسر بقليل.

كانت صرخة باهتة، صرخة تشبثت بالحياة. مدت يدها، أخرجت قلبه، مزقت عشرات الشرايين والأوردة، تفجر الدم فوق الملاءة بقعاً حمراء يتشربها النيل المنسوج فى انتظام.

تأوه، لكنها بعناية وضعت القلب - وكان مازال ينبض - فى طبق معدنى لامع. نظرت إلى الراقد بلا حراك فى حيرة. حدقت فى يديها ثم انخرطت فى بكاء.

كان يبدو الآن جثة هامدة. يتسحب الدفء من بدنه والضوء من الحجرة يتلاشى، فتحت النافذة، وتنهدت بعمق، تخيلته يطوقها من الخلف فى وهن. انفلتت من يديه القويتين. نظرت خلفها، كان ممدداً، قالت فى نفسها: كان لابد أن يحدث هذا.

رأته يرفع رأسه، ولمحت وجهه الشاحب، يستغيث بإشارة من يده. تقدمت من سريره: صرت بلا قلب. عليك أن تموت فى التو. كل كتب الطب تقول هذا!

كـادت تبكي بين يـديه . أما هـو فقـد تماسك قـدر جـهـده، تعثـر في البـداية، لكنه تقـدم منهـا . نظر إلى بقـع الدم على المعطف مـتـحـيـراً . فـوجئت بحـر كتـه، ولاحظت أنه يبـتـسـم بالرغم من كل شيء. خلعت قفازيها المطاطين، احتضنته : كان لابد أن يتم هذا .

قال بصوت مرتعش : كم أنا حزين . . يا شجرة الدر ! !

ثم هوى ساكتًا إلى الأبد !

* * *

طائر مغرد

في اللحظة الفاصلة بين الظلام والنور انطلق مغرداً، بشقشقات هادئة. وقف على فرع الشجرة التي غسلها المطر منذ قليل.

رذاذ لا ينقطع رأته عبر زجاج النافذة المغلقة، برغم كل شيء نفذ الصوت وداعب أذنيها.

لم تنم طيلة الليل. حين عادت في التاسعة إلى منزلها، تلكأت أمام المدخل الحديدي قليلاً، قرأت لافتات المحلات المواجهة، ووميض النيون يخبو ويضيء. صعدت السلم، بملابسها كاملة. انطرحت على حافة السرير، أغمضت عينيها، فكرت، خجلت أن يغرد في صدرها عصفور الكناريا الذي حبسته بصدرها لسنوات.

خلعت فستانها الأزرق، تحسست جسدها في المرآة لأول مرة منذ سنوات الطفولة. شعرها الفاحم جعلته ينسدل.

جلست تحدق في الفراغ، وصوت فتاة الإعلان يستفزها في الحجرة المجاورة.

انحنت تلملم دبابيس الشعر. اصطدمت بدب فضي صغير كانت تلعب به منذ سنوات بعيدة، احتضنته، وفي الليل شردت.

بكت كثيراً دون صوت. قامت تفتح النافذة، فصفعتها البرودة وظلام أخرس، أغلقتها بسرعة.

كان صوته يعلو رويداً رويداً: أنت رقيقة وجميلة. هل يمكن أن أتركك تتسربين من يدي كذرات رمل؟

هزت رأسها: ابحث عن غيري!

قالتها بين الشك واليقين. ونقر العصفور النافذة بمنقاره نقرتين، فتحت وهى تحمى صدرها الصغير بدفتر الأشعار. انطلق يحلق فى فضاء الحجرة ثم كالسهم مرق إلى الفضاء الرصاصى.

كان الضوء الوليد يجاهد أن يتفتح كزهرة، والنيل على مقربة لا يلتفت لزفرات الصدور المتألمة!

* * *

قط أسود

كان يستند بظهره على السور الحديدى البارد، تحت قدميه مربعات البلاط المضلع بلون أصفر حائل. النيل من خلفه يغط فى نومه العميق. وردية العاشرة تخرج من بوابة المصنع القريب. عمال يسرعون الخطى، وبنات يثرثرن. واحدة منهن تضع إيشاربًا رماديًا حول شعرها، وراحت تغنى بصوت خشن: «ياامه القمر ع الباب.. نوّر قناديله». ثم تضحك مع تطويحة رأسها. سكتن عندما مررن به. ثم واصلت البنت الغناء: «ياامه أرد الباب.. ولاّ أنادى له؟!». كان نقيق الضفادع يعلو كل شىء ويبدد الونس!

عبرت سيارة مرسيدس مغلقة النوافذ تطلق نفيرها بالرغم من خلو الطريق من المارة، ثم أعقبتها دراجة بائع اللبن الزبادى. فى آخر الشارع تعثّر، وقعت أكواب البلاستيك على الأسفلت. راح الرجل يلعن الأيام والحظ، ثم وضع وجهه بين يديه وظل لساعة كاملة بلا حراك. كاد يذهب إليه يواسيه، لكن قدميه ثقيلتان.

شعر بالحزن يقتلع فؤاده. لماذا باح لها بالسر الذى أخفاه؟

لماذا لم يكتف بهذا الخدر الناعم اللذيذ الذى كان يتسلل إلى قلبه فى هدوء وحذر؟ تلون وجهها ساعتها وهو يقترب منها.

قال لنفسه: تريث. لكن عيونها الوادعة دفعته لأن ينطق. لم يقل لها إنه يحبها، لم يجرؤ على البوح، لكنه سألها: هل ترسلين لى خطابات؟ هزت رأسها: مستحيل!.. هل أراك ثانية؟ أغمضت عينيها فى توسل: لا يمكن.

ركض فى السراديب المهجورة، فهاجمته خفافيش الوحدة، وأدمت العينين. صرخ فى الفراغ الهائل، وكل كيانه يرتعش: لماذا أتيتِ فى هذا الوقت بالذات؟ لماذا؟

قالت له وقد أودعت عينيها رقة الدنيا: جئت، ولم أتخيل مطلقًا أن أخرج بعاهة!.

ضحك للمفارقة. تبدد أله للحظات. شعر بشجر الكافور يضرب بجذوره فى قلبه. ضحك بكل قواه. كلما نظر إلى عينيها ضحك. أما هى فقد ابتسمت، ومدت يدها: سأذهب.

فى الطريق إلى المنزل قابله. محدودب الظهر، تبرق عيناه. نظر إلى جسده النحيل فى تحدٍ. قوس الجسم وتمسّح فى ذيل بنطلونه. راح يموء وينفض قطرات المطر. قط أسود والطريق صار خالياً. لم يتشاءم، ذهب إلى «الكشك» الخشبى عند الناصية، ابتاع فطيرة بالعجوة قدمها للقط. وعلى حين بغتة، خربش القط يده، ثم انطلق يعدو فى الطرقات!

* * *

أوراق رسمية

فى حفرة ضيقة أسفل الشاهد دلوا الجسد الملفوف فى الكفن، ثم راح العجوز يلقن الروح جُملاً منغومة الإيقاع. كانت كومة حصى على مقربة. يقف بين الأقدام نحيلاً ضائعًا. على القبور القريبة سعف نخيل مترب فقد خضرته من زمن. ونباتات متسلقة، ورخام محفور عليه الأسماء. تسمر مأخوذًا باللحظة وجلالها.

لاحظ أن النسوة ينتحبن ما عدا أمه. بدت فى ثوبها الأسود جميلة. كانت تردد الكلمات بشفتين مرتجفتين، ثم أحاطت رأسه الصغير بيديها. فى الزرقة السماوية يعرف أنه سيصعد. حيث النور الصافى. يترك هذا الضجيج ولا يشارك فى تعاسة البشر.

تسلل فى صعوبة من بينهم. خفت العويل والبكاء. قاده الطريق المتعرج إلى ساحة يطل عليها مسجد «عمرو» القديم. الأعمدة الرخامية ذات التيجان المنقوشة تغوص فى برك الماء الآسن. رأى الأولاد يلعبون «الكوتشينة». يقامرون بالقطع الفضية ويصخبون، رائحة نفاذة لبخور لا يعرف مصدره تجتاحه. يخطو ببطء بين حدبات القبور، لمح بنتًا صغيرة فى ثوب أبيض نظيف تكنس أمام إحدى الشواهد، كانت تعقد شعرها على صورة ذيل حصان. وفيونكة حمراء كبيرة خطفت بصره.

اقترب منها، توقف. شعرت به: أعطنى كوب ماء. رفع يده نحو فمه مؤكدًا! تركته ودخلت من الباب الذى أحدث صريرًا مكتومًا. شمل المكان بنظرة مستطلعة، وجد ألواح الخشب وقطع الصفيح تصنع بيتًا، وسمع وشيش الوابور. وصوت الأم فى الداخل. مدت يدها دون

أن تنبس. تناول الكوب، تجرعه. سألها: ما اسمك؟ راحت تصنع بيدها إشارات لم يفهمها. أدرك أنها خرساء. لوح بيده مبتعداً. واتسعت مساحة الحزن!

فقد الموت سطوته وبدا شيئًا أليفًا، انبثقت في ذهنه صور عديدة تخيلها للحظة المفارقة الحاسمة. ثم أغمض عينيه وتنهد: لقد عرفته. ولم أعد أخشى مواجهته.

طيلة شهرين تعبت أمه في صرف بعض مستحقاته المالية. أرهقها التجوال بين المكاتب الحكومية، وإعلان الوراثة، والمجلس الحسبى. أوراق بعشرات الإمضاءات، تمغات، رسوم، ختم الصقر. أصول وصور كربونية. كان سريره يبدو نظيفًا ومرتبًا كالعادة، وخاليًا..

حين أتى الموت لم يبحث عن أوراقه الرسمية. لقد تصرف كما ينبغي بهدوء، لكن بكل الحزم الواجب في مثل هذه الأحوال!!

* * *

الأستاذ

فى مدرج الجامعة جلست مع زملائها وزميلاتها تفكر فى الرحلة الشاقة التى عليها أن تقطعها. بدت وسط الحشد الصاخب وحيدة بلا رفيق، مشدودة إلى مدينتها الصغيرة البعيدة ناحية المصب، يتشبث بها أمل ودت ألا تفارقه.

دخل بقامته القصيرة واعتلى المنصة، وبدأ يلقى محاضرته. كان ضئيلاً بصورة ملفتة للنظر. فى البداية لم يعيروه التفاتًا، لكن نبرات صوته القوية أدخلتهم دون إرادة منهم دائرة نفوذه.

قال فى بداية محاضرته ودونما مناسبة: على الشباب أن ينصتوا لكل كلمة فعليهم أن يحققوا على الأرض جنة من صنعهم.

ضحك وهو يواصل حديثه: وعلى الفتيات أن يكففن عن الثرثرة، ويكفى أنهن أخرجن آدم من الجنة!

غضبت للمعنى الصريح فى عباراته. شعرت بها وكأنها تعنيها بالذات. كرهت أن تصمت للإهانة. كتبت على ورقة صغيرة، انتزعتها من دفتر محاضراتها عبارة. ثم طوت الورقة، وراحت تداعبها بأناملها، وتقرض أظفارها. لاحظت أن نظرات الأستاذ واثقة، هزتها من الأعماق كلماته، وقررت ألا تتراجع. كان يعقد رابطة عنقه بصورة فريدة، لم ترها من قبل.

فى بداية المحاضرة التالية وضعت الورقة مطوية فوق المنضدة، وانسحبت إلى مكانها بالمدرج.

حين دخل ليلقى محاضرته لمح الورقة، قرأ فيها: لقد أخرجت حواء

آدم من الجنة، وهى القادرة على إعادته لها. ابتسم للفكرة.. أما هى فقد شعرت أنها تسير فى شوارع مبتلة بالضوء والمطر. رفت ابتسامة راحة، ثم شملتها طمأنينة، وهى تكتب أفكارها بخطها الدقيق فى آخر ورقة من دفترها. يختلج قلبها بمشاعر متضاربة، وهى تشعر أنها حواء التى لم ينصفها أحد، وستخوض المعركة للنهاية!

تنوء بأثقال حزن أبدى لا تعرف له نهاية، كانت تتذكر ستائر الدانتيلا بمنزلها، وردات الأوركيدا فى الواجهات الزجاجية، أنغام موسيقى قديمة شجية تهزها. لكن هذا القلب من يهزه بالحب؟

فى حديثه التالى لم يهاجم المرأة، وأسماها شجرة الدر. لم يرق لها الاسم فى البداية، أغضبها، بل نفرت منه. لكنها اكتشفت طرافته. حين قابلته بعد عام حكت له عن الأستاذ وقال لها عن آلامه.

ود أن يبكى. شعر بها كضوء الشمس الذى يغادره فى وضوح ساعة المغيب دون أن يملك له شيئًا. كل ما قاله للطرقات بعد أن غادرته:

لست موقنًا أنك ستعيدينني إلى جنتك!

* * *

تهيـــــؤ

تهيأت للقاء. أحضرت ثلاث قرنفلات: واحدة بيضاء، واثنتان بلون الدم القاني. نسقت الفروع الخضراء التي أحاطت بالزهرات، غيّرت ماء الكوب وكان معكراً. خففت الإضاءة. أشعلت عوداً من البخور الجاوى، سرت رائحته في الحجرة. دخلت الحمّام، اغتسلت ثم ارتديت قميصي الكاروهات الصوف، بالرغم من أن الشتاء لم يفرض سطوته.

رائحتها تملأ أنفي. على هذا المقعد القطيفة الكُحلي ستجلس، سأمسك يدها، أتأمل عروقها الرقيقة يشف عنها الجلد الأسمر الرقيق. سأحدثها بأجمل الكلام.

دخلت المطبخ. أفرغت باكو الشاى في العلبة البلاستيك، ثم اكتشفت أن السكر قد نفد. نظرت في ساعتي. كانت العقارب تزحف في بطء قاتل.

تركت الباب مواربًا، وهبطت السلم مسرعًا، دخلت أول دكان، سألت، هز رأسه أسفًا، ثاني دكان، ثالث دكان، لافائدة. اتجهت إلى عم لطفي مكوجي الحي. همست في أذنه. أحضر لي مقعداً: لحظة واحدة يا أستاذ!

غاب دقائق معدودة ثم عاد بكيس السكر. نفحته ممتنًا مبلغًا من المال يزيد كثيراً عما دفعه، فهز رأسه شاكراً.

صعدت السلم قفزاً. حدقت في ساعتي. لعلها أتت، وأنا بالخارج. كان محبس الماء التالف يقطر في انتظام على البلاط العارى بصوت

مسموع.

تأكدت من أنها لم تحضر بعد.

أخشى بريق عينيها، وحين أهرب من نظراتها النافذة، أثبت عينىَ في أمواج شعرها الأسود الذى تلفه دونما كبير اعتناء. ستأتى وتضحك: أصبتنى بعاهة!

تحسست نعومة ذقنى، تأكدت أن حذائى اللامع لم يتربه مشوارى القصير. أزف الوقت. أتيت بشموعى الملونة، أشعلت عود ثقاب، انطفأ، تعجبت، فقد كانت الستائر مدلاة قرنفلية اللون، ومن خلفها النوافذ مغلقة. فمن أين أتت الريح؟. أشعلت الشموع وثبتُّها فى الأركان. سأضع رأسى على حجرها. فى أول الأمر أجلس صامتًا. ستقف قبالتى وتهتف بى: مالك؟

سأنظر فى عينيها. سأحتمل العاصفة. أبتهل وأقول لها فى خفوت: الأشجار عارية مازالت، وأنا أحتاج إلى دفء قلبك.

حين تضحك وتقول: ابحث عن فتاة أخرى. سأجذبها نحوى، وأمد يدى أتلمس خيوط قوس قزح. أنزع دبابيس الشعر، وأطلق ضفائرها، فلم أعد أخاف البرق.

خطوات مقتربة. أطفأت الأنوار الكهربائية كلها، تشاغلت بقراءة صحيفة الصباح. أعرف أنها ستدق جرس الباب، بالرغم من كونه مواربًا. ستقول لى إنها نسيت الأستاذ، وإنها فكرت فى الأمر مليًا. وإن قطع الزجاج الملونة التى أصنع منها عقدًا لها خير من اللآلئ الأصلية التى عاشت تحلم بها.

سأقبلها وتغضب، تدفعنى فى صدرى: أنت لا تملك شيئًا سوى أكوام من كتب أكلتها «العتة»!

سأتحسس فقرات ظهرها وأضحك لأنها طويلة ونحيفة وسمراء

وجميلة، سأعيد عليها عبارتى التى دهشت لها: كم أنتِ رقيقة؟!

سترتبك وتقول: أعرف أنك تجاملنى، لست جميلة!

تضحك وتمد يدها بالسلام. لكننى أعرف كيف أجعلها تنتظر.

كل شيء يجعلها تبقى لمدة أطول: الضوء الرومانسى الخافت، موسيقى موتسارت، ستائر الدانتيلا، رائحة البخور الجاوى. ثم علبة القطيفة وبداخلها هديتى.

على السلم صوت الخطوات يقترب. قلبى يكاد يقفز من ضلوعى. صوت الجرس. تشاغلت بالقراءة: ادخلى. انتظرت. قمت واقفًا. واجهنى صبى المكوجى، مد يده بلفة خطابات قديمة، وورقة صغيرة عليها اسمى بخط الرصاص.

أغلقت الباب فى عنف، مزقت الورقة دون أن أقرأها،

أحسست برغبة حارقة فى البكاء إلا أننى لم أبكِ.

كل ما استطعته أننى أطفأت الشموع، وسبحت فى الظلمة!

* * *

لوح البلور

ذهبت إليه. خطف عينى لوح البلور بلونه الفستقى الزاهى، قام من مجلسه صافحنى. شد على يدى بحرارة. أشار لى أن أجلس على المقعد الجلدى الوثير. كانت الأشجار ترتعش فى الخارج، والدفء مثخن بالجراح.

رأيت الأولاد يخلعون أحذيتهم ويخوضون برك الماء، والمطر يهطل. وميض البرق المفاجئ ينعش فى صدرى كل الذكريات الدفينة. مد يده بعلبة سجائره «الروثمان». شكرته، تعجب: أمازلت ترتكب كل جرائم الدنيا ما عدا هذا الشىء البسيط.

ضحكت: حلقات الدخان أحب أن أراها، ولا أطيق شمها.

رفع حاجبيه دهشة: ها.. أنت فى مأزق. وجئت لتفضى بهمومك؟

قلت فى صراحة دون لف أو دوران: أنا هنا لأننى تعس!

ترك مكتبه، وداس طرف السجادة الفخمة بحذاءه الثقيل، أخذ يجذب أنفاساً من سيجارته: أعرف، تلك طبيعتك؛ أن تظل تشعر بأنك محاط بالأحزان. السعادة تقلقك.

ثرت فى وجهه: هذا غير صحيح. وأنت تستفزنى بكلماتك، ثم... أشار لى بيده مقاطعاً: دعنى أتكلم.

صرخت، وقد احتقن وجهى من شدة الغيظ: لا تعاملنى كطفل صغير، أنا فى غنى عن صداقتك.

زفر أنفاساً فى ضيق، ثم عاد إلى مكتبه. انكب على دفتر قديم يراجع كل الأحزان. لم يعد من اللائق أن أحدثه. أشرب قهوتى السادة وأنصرف.

حدّق في وجهي وقد لمح شعرة بيضاء تتخلل شعري: لقد تقدمت بنا السنون! قبل أن أنطق واصل كلماته: إلى متى تظل تحلم بالزنابق وتبكي لأنين الناي؟ أمازلت تحب؟

هززت رأسي، وصوتي مختنق: نعم. لكنها شجرة الدر!

علا صوته بضحك متواصل: حتى ولو كانت نفرتيتي. أنت هوائي!

قلت مستنجداً: هي تقول ذلك!

ربت على كتفي: لا تعشق الملكات.. ولا الكلمات!

صمتْ وصمتُ أنا الآخر. رشفت قهوتي في لا مبالاة. وعندما طرحت المقعد الجلد إلى الوراء لأستند على الجدار سمعت صوتاً يدوي. انكسر لوح البلور، متناثراً إلى قطع جد صغيرة!

* * *

تواطؤ

جلس معها على المقعد الحجرى المواجه للنيل صامتًا. السور الحديدى القصير أمامهما، ثم المياه بزرقتها القانية. خلفهما ممشى نما فيه العشب كيفما اتفق. فرح بالهدوء الذى شمل المكان.

السحب داكنة تأتى من الشمال متثاقلة، وتحجب الشمس للحظات فتغيم الرؤية، وتفزع الطيور،ثم يعود الضوء ألقًا. نوارس بيضاء تحلق فى الفضاء المتسع، ثم تنطلق ناحية النخلات المتساندة على ضريح «الصياد».

هبت نسمة باردة، وجاءت البنت بعقود الفل. فلم يشتر منها رغم أنها ابتسمت له، وقالت: «فل يا بيه!»

هزته بيديها: فيم تفكر؟

انخطف قلبه، وشعر بأنه يعدو حافيًا فى طريق بلا نهاية ملىء بالحصى والأشواك، قال وهو يبص على الكوبرى المعدنى الصدئ بينما يهتز تحت وطأة العربات المسرعة: شىء داخلى ضاع.

فتحت الحقيبة، أخرجت مرآة مستديرة صغيرة، قلم الكحل الذى مرت بالسن الطرى الأسود حول جفنيها. قالت: لا تعرف ما تريد. أنت مُحير!

لم يحزن لوخز كلامها. أحس بها صادقة.

زمت شفتيها، واسترخت فى جلستها، استندت على كتفه. ابتعد. زفرت فى حزن: ما الذى صنع بك هذا؟ أين إرادتك التى أوجعت بها رأسى؟ دار محرك سيارة على الطريق الأسفلتى خلفهما، شعر

بالضجيج يملأ رأسه. ضاع الهدوء. سألته: أتريدني الآن؟

تصلبت ملامحه، تسلل الفزع إلى داخله. انتزع العشب الأخضر المبتل بيديه من جذوره. نثره فوق فستانها المنقوش بزهور صفراء تثير ضيقه. كان يشعر معها بالفراغ الهائل وكانت متهالكة برغم وجهها الصبوح. خبطت على ظهر يده: أنأخذ زورقًا؟

ضحك في أسى: في هذه النوة؟

قامت متحمسة: أنا أعرفك تمامًا. لابد أن تخالف توقعي. قطع السحب تكاثرت. وأربدت السماء فجأة. هطل المطر غزيرًا. فتحت زر فستانها العلوي. فبدا نهداها ناصعين متوردين، وطرف الشيفون الأحمر انحسر فجأة لتبدو فاتنة. مد يده فأغلق الزر، قال لها: تبردين!

ضحكت وكان في صوتها بحة مؤثرة: أنت لا تريدني!!

بدا النهر غضوبًا وفقد زرقته، صارا مبتلين تمامًا، نظر إلى بيتها المواجه للكوبري مغلق النوافذ، مضاءة حجراته. عاد إلى رفيقة المطر والعواصف. تأمل نزقها. هتفت به: هيا نقفز إلى الزورق. أتعرف التجديف؟

قال وطعم الصبار يملأ فمه: أعرف. ولا أريد!

ظلت تحدق في وجهه في أسى. والأمطار تهطل أكثر، والصبار يتكاثر. النخلات على الضفة الأخرى تهتز في جنون وكأنها على وشك الاقتلاع.

كان يتأمل في استسلام النوارس التي ماتزال تحلق. أما هي فقد جلست تحدق في غضب النهر بزهورها الصفراء الحزينة!!

* * *

رونق الكلام

كنت قد عزمت على مصارحتها بالأمر . سهرت الليلة أرتب كلماتى، مداخل الحديث، أنتقى الألفاظ بعناية كما أفعل عندما أهندم ملابسى استعداداً لحفل زفاف جار أو قريب .

وحتى لا تطير الكلمات من رأسى. فقد رحت أخط على أوراق بيضاء غير مسطرة بأقلام «الفلوماستر» الملونة. وكلما التهبت مشاعرى أمسكت بالقلم الأزرق، وكتبت عبارات منمقة بخط النسخ الجميل . فى هذه الحالة تكون النقاط متناثرة. والمسافات بين الأحرف ينتظمها إيقاع دقيق. وكنت أتعجب لحرف (الشين) لأنه يشغلنى بضجيجه وسطوته، وأتألم بل أتداخل فى ذاتى بكل خجل لحرف (الباء) فهو يبدو منطويًا ويُنطق بأطراف الشفاه. أما حرف (الضاد) الذى تباهوا به فقد بدا لى ثقيل الظل، واسع النفوذ فى الدوائر الرسمية .لكنه حين يدخل المقاهى الشعبية وأزقة مدننا الفقيرة يبدو غريباً .

حرف (الهاء) لاحظت أنه خجول وآسر، ويبدو متكتمًا لسرٍ ما .

(الميم) فى استدارته أخافنى خبثه وخشيته حتى إننى ارتعدت . ترددت إذن أمام الحروف وكأننى أراها للمرة الأولى، بل إننى تشككت فى جدية الأمر بكامله. نمت بملابسى، وقررت أن أكف عن التفكير فى أى شيء سوى النوم. لكننى اكتشفت أن الدقائق تمر بطيئة، والنوم لا يأتى. وساعتى أسفل الوسادة تدق فى توتر محموم.

أبعدت الغطاء وكان خفيفًا، قمت أسوى ملابسى التى تثنت . قفزت

إلى رأسى فكرة أن أنطلق من المنزل. لن يكلفنى الأمر سوى أن أضع قدمى داخل حذائى الأسود المترب، وأهبط السلم، ثم أخترق الأزقة الخالية، وأتم عبور الشارع الأسفلتى، بعدها أواجه النيل شامخًا ومهيبًا، أعرف أنه قادر على منحى الكلام، وخرجت، بدت الأشجار من حولى مطرقة. تحرجت من الحديث أمامها. والسور الحديدى وقف حائلاً بينى وبينه.. قفزت من فوقه. جثوت على ركبتىّ. أمسكت بالأوراق وغمرتها فى الماء. لاحظت أن الكلمات شحبت، وتبددت الأحبار، قلت: لا فائدة. ليس للكلام رونقه القديم! تمددت على العشب الأخضر الرطب المبلل ثم وضعت رأسى على حافة النافورة مرهقًا. غفوت.

فى الصباح غمرنى الضوء، أصوات الأطفال، مروق السيارات تعدو مسرعة.

بحثت عن الباب الحديدى، خرجت.

صعقت لمرآها. وكأننا على موعد، كدت أذوب خجلاً، قلت بصوت خافت خجول: هى مصادفة. أقسم لك! كتمت ضحكتها، سرت إلى جوارها. كان المارة يطيلون النظر إلينا. يحدقون فى وجهى، أهو العشب الأخضر الملتصق بجلد الوجه؟

اقتربت من كشك الكتب، ابتعت جرائد الصباح جميعها. لحقت بها. قلت والكلمات تتلاحق وتتدافع شاردة: الأبجدية.. لعينة.. لكن.. من.. الممكن.. أن.. تفهمى!

تضاءلت الحروف، انكمشت الكلمات، بدت عارية وخجلة، وقفت فجأة أمسكت بيديها: الكلمات فقدت معناها، أتؤمنين بى دون كلمة واحدة؟ انتزعت يديها وسارت غاضبة.

عدوت إلى الميدان المواجه، بين السيارات المندفعة. خلعت سترتى،

قذفتها على امتداد ذراعى. صرخت فى المارة، وهم يتجمعون ويحدقون أكثر وأكثر: مَن منكم قادر على تطويع الأبجدية؟ احذروها لقد فقدت نصوعها.

تضاحك الرجال، وقذفنى الأطفال بقطع الحجارة الصغيرة، وراحت السيارات تطلق نفيرها المزعج. أما هى فقد ابتعدت. ولم تلتفت نحوى. فقد رأيتها تخرج منديلها الأبيض الصغير وتمسح دموعها فيما كانت الحروف تحاصرنى وتضيق علىّ الخناق فقد بحت بسرها الدفين!

* * *

كوب .. حجرة

حينما مدت يدها بالكوب أسرعت بإغلاق الباب. أدرت المقبض وتأكدت من أن أحداً لن يقتحم عليّ الحجرة. كنت على وشك الانتهاء من كتابة السطر الأخير. قرأت الكلمات من جديد. شعرت بحر لافح يجتاحنى. مزقت الورقة. اعتدلت على مكتبى الخشبى العتيق. تأملت من النافذة العربات المتمهلة خوفًا من مطبات الطريق. والرجال محنيو الظهور. والشمس كانت مصلوبة فى الأفق لا تبخ صهدها، بل ترسل أشعتها واهنة. تتفصد جبهتى بالعرق، تتجمع الحبيبات الدقيقة، وتسيل فى خيط رفيع يتسلل نحو عظمة الترقوة، فيلتصق القميص بالجلد.

قلت فى نفسى: هذا غريب. على حافة الشتاء نحن، فلم الشعور بالحر؟

بالأمس غسل المطر الأشجار وأحجار الطريق، وأحزانى القديمة. لم العرق؟ تجمدت يدى على كوب الشاى، رشفت بتلذذ أول رشفة وتهيأت للكتابة. طن الذباب من حولى، ضايقنى تمامًا. قمت وقلبى ينتفض بقوة. أمسكت بلوفرى الذى خلعته منذ رجعت، رحت أهش الذباب ساخطًا. رأيته يطير نحو النافذة. يصطدم بالزجاج، ويعود. يدور فى فضاء الحجرة دورات عابثة.

تعبت يدى. وأنا أتابع الحركة اللاهثة المجنونة. أخيراً صرت وحدى. أحكمت إغلاق النافذة، شعرت بالسقف يبتعد. فى تلك الحالة من السهل أن أكتب. أسند ظهرى للمقعد وأتنهد ثم أنطلق لا يحد أفكارى شىء.

فى نفس اللحظة المهيبة التى أمسكت فيها قلمى، اقتحمنى. ربت على كتفى ولقد دهشت، فقد كان ضاحكًا وحنونًا. ضمنى إلى صدره دون كلمة، فسرت فى روحى نغمة شاردة طالما طاردتها لأقبض عليها دون جدوى. خلع خوذته، وأسند بندقيته إلى حافة المكتب. تأمل أوراقى البيضاء، انحنى على أرض الحجرة والتقط الورقة الممزقة، قرأها صامتًا.

قال لى رفيق طاقم الهاون: أنسيتنى؟ لم لا تزورنى؟

تلاشى الضجيج، ونداءات الباعة، وصياح الأطفال، وهم يطوحون حقائبهم الملونة، ويتعاركون فى صخب. صرت والسكون وهو.

كانت ساعة الحائط تدق الواحدة ظهراً. صدى الدقات كأنها إيقاع جنائزى يلملم روحى الممزقة. عاود حديثه: لقد وعدتنى!

تلفت حولى. كنت بالفعل وحيداً، مصباح الفلورسنت فى الصالة المعتمة مطفأ، وعروق السقف الخشبية شامخة. وجهه المطمئن شملنى بنبل لا طاقة لى به. لم أكن خائفًا. كان العرق ينهمر على جسدى فقط، وصوتى محتبس. قلت: لقد غبت طويلاً. أين كنت؟

ظللتنى ابتسامة، وتهاوى صوته كموج وشيشه أليف: كنت هناك.. نمت داخلى الأصداف وتمددت الأعشاب البحرية فلم أستطع التحرك.

قلت: حاوطنى الحزن.

كان شاربه القصير مقصوصًا على غير العادة، وذقنه نامية كشوك قصير.

قال: هذا الخطاب منها.

قلت: هى لا تعرف عنوانى. كيف أرسلت؟

هز رأسه مندهشًا وصوته يخفت: طاردتنى فى الصحو والمنام، سعت

إلى حيث أرقد. تقدمتها الأسماك الصغيرة. لم تخف النهر وأتت.

مددت يدى، فتلاشى فى الصمت. وتبدد وجهه الحبيب.

لم يترك سوى راحة هائلة. ونقطة دم تجمدت على ساعدى الممدود.

نضوت عنى أحزانى. نفحنى من روحه الشىء الكثير. أمسكت قلمى، وحين تأهبت للكتابة أحسست بالسقف يتراجع رويداً رويداً، والجدران تفر متباعدة. بينما صرتُ داخل حجرة هائلة الاتساع.. نقطة صغيرة تتحرك فى الفراغ، وتبحث عن ظلال الحقيقة. بينما الورقة مازالت بيضاء، وكوب الشاى ممتلئ لمنتصفه!

(انتهت المجموعة)

* * *

فهرست

صدر للمؤلف

*** الشعر**

- الخيول، مديرية الثقافة بدمياط، سبتمبر ١٩٨٢.
- ندهة من ريحة زمان، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩١.
- ريحة الحنة، مديرية الثقافة بدمياط. ١٩٩٨.
- هجى الوطن فى النور، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أبريل ٢٠٠٠.
- سجادة الروح، إقليم شرق الدلتا الثقافى، مايو ٢٠٠٠.

*** الرواية**

- رجال وشظايا، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠.
- ظل الحجرة، مركز الحضارة العربية، أغسطس ٢٠٠١.

*** القصة القصيرة**

- خوذة ونورس وحيد، دار سما، أبريل ٢٠٠١.
- كيف يحارب الجندى بلا خوذة؟ المجلس الأعلى للثقافة، سبتمبر ٢٠٠١.
- أرجوحة، مركز الحضارة العربية، نوفمبر ٢٠٠١.

*** دراسات ومراجعات**

- الحكيم وحماره، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩.

*** حوارات صحفية**

- مواجهات، مديرية الثقافة بدمياط، مارس ٢٠٠٠
- تقاطعات ثقافية، مديرية الثقافة بدمياط، مايو ٢٠٠١

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية - قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	سراديب	عفاف السيد
حمدان طليقًا	أحمد عمر شاهين	إينارو	د. على فهمى خشيم
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ	حكاية شمردل	عمار على حسن
سريب	أحمد الفيتورى	جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدا)	د. فاروق أوهان
وقائع غرق السفينة	إدريس على	البحر يغرق	د. فاروق أوهان
صخور السماء	إدوار الخراط	وجهها وطن	فاطمة يوسف العلى
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	لبلاد طلبت أهلها	فيصل سليم التلاوى
همس العاشقين	أمين بكير	يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطانى	خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
مطربة الغروب	جمال الغيطانى	ترانزيت	ليلى الشربينى
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي	الفتيت المبعثر	محسن الرملى
المتعبون	جمعة محمد جمعة	المينا الشرقية	محمد جبريل
دموع إيزيس	حسنى لبيب	مد الموج	محمد جبريل
يومية هروب	خيرى عبد الجواد	حريم .. (أعزكم الله)	محمد الغربى عمران
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد	الخروج إلي النبع	محمد قطب
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن	يا عم يا جمّال	محمد الناصر
شجرة الخلد	سعد القرش	الحياة الذروة	د. محمد نعيم شريف
شهقة	سعيد بكر	الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
أيام هند	سيد الوكيل	فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد	اختزال في المسافة والسفر	محمود الورواري
أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد	الحنين إلى النسيان	ممدوح القديرى
دردانين	عاشور الطويبى	الضياع وجبل الأوهام	ممدوح القديرى
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق	الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
الخرابة	د.عبد الرحيم صديق	دم الأبنوس	ناجي الشكري
ليس هناك ما يبهج	عبده خال	ويصدأ ماء النهر	ناصر الهلابي
لا أحد	عبده خال	حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
آخر ما قاله النهر	عز الدين الأسوانى	قمر أخضر	نهلة السوسو
صعيدي صح	د. عزة عزت	خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية